



— روايات مصرية للجيب —

طائر غريب

Looloo

زهور

٢٢

www.dvd4arab.com



د. نبيل فاروق

الناشر
للزوجة العربية الحديثة
للتبليغ والنشر والتوزيع
بالتعاون مع مؤسسة البحوث والدراسات الإسلامية

طائر غريب ..

برغم جوع من حولي برغم الصخب والصيحات
برغم حريسة قولي برغم الثروة والسطوات
أحس بأنسي قلب يفتقد الحب والبسات
أحس بأنسي وحدي وبصدرى كل الآهات
أعيش من دونك حبي فيهن في نفسى الممات
أعيش بعيدا عن عقل فصدا في حلقى الكلمات
أعيش وحيدا منظويا مرتجفا مما هوأت
أثوق لنهر يُغرقنى في بحر تروى عبرات
أثوق لقلب يسرقنى من عمر يكي النبضات

(نيل)

١ - بعيدا ..

هيا يا (حسن) .. أسرع ، وإلا فستمضى الطائرة
بدونك ..
همست الأم الحنون بتلك العبارة في حنان غامر ، وهفة
حزينة ، وهى تتطلع إلى ابنها النحيل ، الذى انهمك في ترتيب
حقيقته الوحيدة اليتيمة ، وهو شارد قلق ، تضع نظراته غير
النافذة ، في سماء ممتدة إلى ما لا نهاية ، وعدد لا حصر له من
النجوم المتأللة كحبات من الماس ، فوق رداء مخملى أسود ،
وقمر لم تكتمل استدارته بعد ، فبدأ كقرص من الفضة ، التهم
منه الظلام قسمة نهممة شرمة ..

ولم يسمعها (حسن) ..

كان عقله يسبح بعيدا ..

يسبح في نهر من ذكريات شتى ، أظهرت على أن نخوم
حول رأسه ، منذ مغيب شمس اليوم السابق ..

كان يسترجع حياته كلها .. تقريرا ..

لقد نشأ في بيئة متوسطة ، وجاء تربيته الثالثة . بين
أشقائه ، فيكبره (أحمد) و (وهبي) ، ويأق هو ، ثم تصغره
(حنان) .. شقيقتهم الوحيدة ..

والده موظف مرموق ، في إحدى الوزارات الحكومية ،
بشير ذكر منصبه الرهبة في نفوس موظفي الوزارة ، ولكن هذا لم
يمنع كونه أحد محدودى الدخل ، الذين تقتصر مرتباتهم على
نفعائهم الضرورية ، مع لمسة من الأنافة ، تكون دوماً ضرورية
لواكبة هبة المنصب ، ولكنها لا تكفى لإشباع الأسرة مادياً
أو معنوياً ..

ولقد كان الأب يدرك هذه الحقيقة ، ويتعامل معها بواقعية
كاملة . هو وزوجته الحنون ، التي يعود إلى حرصها وحسن
إدراكها . فضل نجاح الأسرة في الظهور بمظهر جيد ، طيلة تلك
السنوات ..

وكان من الطبيعي أن ينشأ الابن الأول (أحمد) مشابهاً
لوالديه ، مستسلماً لوضعه الاجتماعى ، مستكيناً له ، يمشى في
حياته في آليته ، فيحصل على شهادته الثانوية بمجموع عادى ،
أهله للالتحاق بكلية بسيطة ، تخرج فيها أيضاً بتقدير جيد ،
وجلس في المنزل مستسلماً ، ينتظر خطاب القوى العاملة ،
الذى سيحدد له مسار حياته للسنوات المقبلة ..

ولم يختلف (وهبي) كثيراً عن والديه وشقيقه الأكبر ..
مضى في حياته مستسلماً ، ينتقل من خطوة إلى أخرى في
هدوء ، ودون أن يثير حوله أدنى اهتمام أو قلق ، حتى أنه لمن
الممكن أن نقول إن أحداً من أسرته لم ينتبه إلى حصوله على
درجة الليسانس ، إلا بعد أن أخبرهم هو نفسه بذلك ، في أثناء
تناولهم طعام العشاء ، في لهجة بسيطة ، كما لو أنه يلقي إليهم
خبراً بسيطاً ، يخص شخصاً يمت إليهم بصلة قرى بعيدة ، ويقع
في قارة أخرى ..

وهو أيضاً جلس ينتظر خطاب التعيين ، حتى أن شيئاً لم
يتغير في المنزل ، سوى أن (أحمد) و (وهبي) صارا يقضيان
نهارهما كله فيه ، ويشاركان (حنان) في معاونة والدتهم ..
(حنان) أيضاً لم تكن تختلف عن الجميع ، إلا في اهتمامها
الزائد بأنوثتها ، التي نضجت مبكراً ، فركزت كل اهتماماتها في
تصفيف شعرها ، أو الاهتمام بشبابها وزينتها ..

وهي أيضاً سارت على نفس النهج المستسلم المستكين ..
(حسن) وحده تجاوز ذلك المنهج ..
منذ طفولته وهو يبدو وسطهم كطائر غريب ..
لم يكن أبداً مستسلماً ، أو مستكيناً ..
كان دوماً عيذاً مكابراً ..

وكان من المستحيل دائما توقع خطوته التالية ، أو نتائج عمله ..

وعلى عكس أشقائه ، لم يكن يمضي لُجْلَ وقته في استذكار دروسه فحسب ، وإنما كان جم النشاط ، يتقل من نادٍ إلى نادٍ ، ومن موهبة إلى أخرى ، فتارة يلتحق بفريق الموسيقى في المدرسة ، وتارة أخرى بفريق التمثيل ، أو التصوير ، أو يقضي أيامه في رسم لوحات بسيطة ، أو صنع تماثيل بدائية من الصلصال ، أو ينهك شهوْرًا في جمع الصور والطوابع ، وقراءة القصص البوليسية ..

كانوا يقولون عنه إنه متعدد المواهب ، ولكنه وخذه كان ينكر ذلك ويستكره ، ويؤكد أنه لا يمت لذلك بأدنى صلة .. كان يشعر دَوْمًا ، وفي كل المجالات ، أنه غريب .. طائر غريب ، يخلق في سماء تلفظه ، ويهبط في عش من الأشواك والجراح ..

طائر غريب في دنيا مجهولة .. وعلى عكس أشقائه أيضا ، كان دائما متفوقا .. صحيح أنه لم يحصل أبدا على المركز الأول ، ولكنه كان دَوْمًا أحد البارزين في دراسته ، بحيث حصل في الثانوية العامة على مجموع مرموق ، أتاح له الالتحاق بكلية الطب ..

***** ٨ *****

وأصبح (حسن) يحمل لقب (دكتور) .. لقد حمله في منزله ، وبين أقاربه وأصدقائه ، منذ اليوم الأول له في كلية الطب ..

ومن العجيب أن هذا اللقب لم يرق له أبدا .. كان يشعر في أعماقه بسخرية مريرة ، كلما ناداه أحدهم به ..

تفكيره المنطقي كان يرفض اللقب تماما .. حتى بعد حصوله على بكالوريوس الطب ، كان يرفض اللقب ، ويؤكد دَوْمًا أنه لقب مستورد ، وأن لقبه الحقيقي هو لقب (طيب) ، حتى يحصل على شهادة الدكتوراه ، وعندئذ فقط يستحق لقب (دكتور) ..

هكذا هو دائما .. يرفض كل مألوف ، ما دام يتأق مع عقله ومنطقه .. وعقله ومنطقه كانا دَوْمًا سر تعاسته .. كان يؤمن تماما بأن العقل والمنطق هما أساس كل تعامل ، ويرفض مجرد الاستماع إلى قول يتجاهلهما ، مما حكم عليه دَوْمًا بأن يظل غريبا ، مُنطَويا ، وحيدا .. كل اهتماماته كانت فردية .. كل مراهبه لا تحتاج إلى زميل أو رفيق ..

***** ٩ *****

لم يكن له أصدقاء ..

كان يفضل الوحدة ..

يحيد التعامل مع نفسه ..

يجد سألواه في مجالسة عقله ..

حتى ظهرت هي في حياته ..

(مها) ..

زميلته الناعمة الناعمة ..

الوحيدة التي سمح لها باجتياز حاجز وحدته ..

كلًا ..

هي التي اقتحمت هذا الحاجز ، دون حتى أن تستأذنه ..

كان ذلك في السنة النهائية من الكلية ..

في أول أيام سنته الدراسية الأخيرة بالكلية ، وعامها

الثالث ..

في ذلك اليوم التقيا لأول مرة ..

(حسن) ..

نطقها الأم هذه المرة في همس مبالغ فيه ، وكأنها تخشى أن

يسمعها ابنها ، وأن يطيعها ، فيستقل طائرتها ، ويمضي إلى

حيث لن يمكنها رؤيته . لعدد من السنين ، لا يعلمه إلا الله

(سبحانه وتعالى) ..

***** ١٠ *****

ولكنه سمعها ..

هذه المرة انتزعته نداؤها من شروده ، وقطع جبل

ذكرياته ، فالتفت إليها في هدوء ، وملأ عينيه وقلبه بملاحظاتها

الحنون ، قبل أن يتعمم :

— نعم يا أمّاه ..

كان ينطقها في عاطفة ، كمعادته كلما غلبه الانفعال ،

فخفق لصوته قلب أمه ، وازداد له صوتها همسا ، وهي

تقول :

— الطائرة ..

رسم على شفثيه ابتسامة شاحبة ، وهو يغمغم :

— لقد انتهيت من إعداد حقيبتى ..

قالها وأغلق الحقيبة في هدوء ، ثم حملها على كتفيه ،

مستطردًا :

— سأذهب ..

خفق قلبها في قوة ، وهي تقول في لهفة :

— الآن ؟ .. على الفور ؟

عاد يتسم نفس الابتسامة الشاحبة ، وهو يغمغم :

— لم يعد هناك وقت ..

هتفت في حرارة ، وهي تتشبّث بذراعيه ، وتضغطهما في

قوة :

***** ١١ *****

— سأذهب معك

رَبَّتْ عَلَى كَتْفَيْهَا ، قَائِلًا :

— أَلَمْ تَتَّقِ يَا أُمَّاهُ !؟ .. إِنِّي أَكْرَهُ لِحَظَاتِ الرِّدَاعِ ،

سَأَذْهَبُ مَعَ أَبِي وَ (أَحْمَد) فَحَسَبَ .. هَذَا أَفْضَلُ .

بَرَزَ رَأْسُ (أَحْمَد) دَاخِلَ الْحَجَرَةِ ، فِي اللَّحْظَةِ ذَاتِهَا ، وَهُوَ يَقُولُ :

— هَيَّا يَا (حَسَن) .. لَقَدْ وَصَلَتِ السَّيَّارَةُ

شَعَرَ بِأَصَابِعِ أُمِّهِ تَزْدَادُ غَوْصًا فِي ذِرَاعِيهِ النَحِيلَتَيْنِ ، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً مَرْتَعِفَةً ، وَهُوَ يَنْتَظِعُ إِلَى عَيْنَيْهَا ، اللَّتَيْنِ اغْرُورِقَتَا بِالْدمُوعِ ، قَائِلًا :

— مَعْدُورَةٌ يَا أُمَّاهُ .. لَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أَذْهَبَ .

تَفَجَّرَتِ الدَّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا ، وَهِيَ تَهْتَفُ :

— أَرْسَلِ خُطَابَاتِكَ دَوْمًا يَا (حَسَن) .. أَنْتِ أَوَّلُ ابْنِ

يَفَارِقُنَا يَا وَلَدِي .

رَبَّتْ عَلَى كَتْفَيْهَا فِي حَنَانٍ ، وَهُوَ يَقَاوِمُ دَمْعَةً مُتَصَارِعَةً فِي

عَيْنَيْهِ ، فِي حِينَ ارْتَفَعَ صَوْتُ أَبِيهِ ، وَهُوَ يَقُولُ فِي عَاطْفَةٍ :

— هَكَذَا (حَسَن) دَائِمًا .. لَا يَفْعَلُ أَبَدًا مَا يَفْعَلُهُ

الْآخَرُونَ .

لَمْ يَكُنِ الْأَبُ يَنْطِقُهَا فِي حُزْنٍ أَوْ غَضَبٍ .. وَإِنَّمَا فِي حَنَانٍ ..

***** ١٢ *****

كَمْ هُوَ حَتُونُ هَذَا الْأَبِ ..

كَمْ هُوَ طَيِّبُ الْقَلْبِ ..

لَوْلَا خُشُوعُهُ ، وَاسْتِسْلَامُهُ لِسُلَّمِهِ الْوُظَيْفِيِّ ، لَاعْتَبَرَهُ

(حَسَن) أَفْضَلَ مَخْلُوقٍ فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُ — لِلْأَسَفِ —

يَرَاهُ دَوْمًا مُفْتَقِرًا إِلَى الطَّمُوحِ ، لَا يَشْبَهُ — بِأَيِّ حَالٍ مِنْ

الْأَحْوَالِ — أَبَاءَ زَمَلَاتِهِ ، الَّذِينَ يَرْفُلُونَ فِي الثَّرَاءِ ..

وَلَكِنَّهُ يَحِبُّ فِي وَالِدِهِ صِفَةً وَاحِدَةً ، تَجِبُّ لِي رَأْيُهُ كُلِّ

نَوَاقِصِهِ ..

الشَّرَفِ ..

لَقَدْ عَاشَ عُمُرُهُ شَرِيفًا ، لَمْ يَرْتَشْ أَوْ يَخْتَلِسْ ..

عَاشَ صَارِمًا قَوِيًّا فِي الْحَقِّ ..

وَرَبَّمَا لِهَذَا لَمْ وَلَنْ يَنْعَمَ أَبَدًا بِالْثَّرَاءِ ..

إِنَّهُ يَشْبَهُ وَالِدَ (مَهَا) ..

يَشْبَهُ فِي كَوْنِهِمَا شَرِيفَيْنِ ، يَتَأَلَّقَانِ فِي مَجْمَعِ حُكُومِيٍّ ،

وَيَعَانِيَانِ الْفَقْرَ الْاجْتِمَاعِيَّ فِي حَيَاتِيهِمَا الْعَامَّةِ ..

رَبَّمَا كَانَ هَذَا مَا قَرَّبَهُ مِنْ (مَهَا) ..

لَا .. لَيْسَ هَذَا ..

إِنَّهَا شَخْصِيَّتُهَا .. شَخْصِيَّتُهَا الرَّائِعَةُ ..

هَيَّا يَا (حَسَن) ..

***** ١٣ *****

قاده والده إلى الخارج ، فانحنى يقبل وجنة أمه ، التي قبلته
في لفحة .. بل أمطرت وجهه بالقبلات والدموع ، وهي تدعو
له بسلامة الرحيل والوصول ، والنجاح في مساعاه ..
أما شقيقه (وهي) ، فقد اكتفى بمصافحته بابتسامة
حزينة ، قائلاً في صوته الخافت :

— لا تنفّس طويلاً .

لم يقل سوى هاتين الكلمتين ، ثم ترك شقيقه لـ (حنان) ،
التي عانقته وهي تبكي بدورها ، وهتفت :

— ستوحشنا كثيراً .

ابشيم ، وهو يربّت على رأسها ، مغمغماً :

— سأحضر لك أدوات الزينة التي طلبتها ، عند عودتي
بإذن الله .

تضاعف انهمار دموعها ، وهي تهتف :

— المهم أن تعود إلينا بالسلامة .

خلّص نفسه من بين ذراعيها ، وأسرع يهبط في درجات
السّلم ، ليعتد عن كل هذا الموقف الحزين ..
إنه حقاً يكره لحظات الفراق ..

وفي هذا المضمار ، هناك لحظة لم تفارق ذهنه أبداً ..

لحظة فراقه لـ (مها) في الصباح السابق ..

***** ١٤ *****

ما زال يذكر سؤالها :

— أمن الضروري أن تسافر ؟

— نعم .. إنه مستقبلي .

— ألن يصلح مستقبلك هنا ؟

— كلا .

— من قال هذا ؟

— المنطق والعقل ، و

— وماذا ؟ .. ألا تؤمن بالنصيب ؟

— بلى ، ولكن هذا لا يتعارض مع السّنى .

— ولكنك لا تسافر للعمل ، بل ليل درجى الماجستير

والدكتوراه .

— هذا أيضاً سعى .

— بل هو عناد .

— عناد ؟

— نعم .. لقد أغضبك أن الكلية قد رفضت تعيينك فيها ،

فأصررت على أن تحصل على درجة الماجستير قبل (فتحى) ،

الذى قبلوا تعيينه بدلاً منك ، و

— كفى يا (مها) .

— هل ضايقت أننى أتحدّث في صراحة ؟

***** ١٥ *****

— أَسْمَيْنِ هَذِهِ الْاِمْتِنَانَاتِ صِرَاحَةً ؟

— نَعَمْ .. لِأَنِّي أَوْ مِنْ بَصَحَتِهَا ..

— وَأَنَا أَرَفُضُهَا ..

— حَسَنًا يَا (حَسَن) .. لَنْ نَتَشَاجِرَ .. سَافِرٌ ، مَا دَامَ هَذَا يَرْوِقُ لَكَ ، وَلَكِنْ غَدٌ .. غَدٌ كَمَا أَنْتَ ، بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ دِرَاسَتِكَ ..

كَمْ بَدَتْ لَهُ عَيْنَاهَا الْعَسَلِيَّتَانِ كَبْحَرٍ عَمِيقٍ ، يَفُوقُ عَمَقَ صَوْتِهَا ، وَهِيَ تَنْطِقُ عِبَارَتَهَا الْأَخِيرَةَ ..

كَمْ بَدَتْ لَهُ حَالِيَةٌ مَتْلَهْفَةٌ ، وَهِيَ تَوَدُّعُهُ ..

لَقَدْ احْفَظَ بِكَفِّهَا الرِّقِيقَةَ فِي رَاحَتِهِ طَوِيلًا ، حَتَّى تَحْضُبَ وَجْهَهَا بِخُمْرَةِ الْحُجَلِ ، وَهَتَفَتْ فِي حَيَاءٍ :

— (حَسَن) ..

تَرَكَ كَفِّهَا ، وَأَسْرَعَ بِنَصْرِفٍ ، وَبِفَرٍّ كَعَادَتِهِ مِنْ لَحْظَاتِ الْوَدَاعِ ، وَكَلِمَتِهَا الْأَخِيرَةَ لِدَوَى لِي أُذُنِهِ :

— غَدٌ يَا (حَسَن) .. غَدٌ كَمَا أَنْتَ ..

كَانَ يَسْبَحُ فِي هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ ، عِنْدَمَا اخْتَرَقَ صَوْتُ وَالِدِهِ الْهَادِي أُذُنَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ :

— لَقَدْ وَصَلْنَا ..

***** ١٦ *****

انْتَفَضَ جَسَدُهُ فِي قُوَّةٍ ، وَهُوَ يَتَطَلَّعُ إِلَى الْمَطَارِ ، وَالسَّيَّارَةِ تَقْتَرِبُ مِنْهُ فِي سُرْعَةٍ ..

لَقَدْ حَانَتْ لَحْظَةُ الْمَوَاجَهَةِ ..

لَحْظَةُ الْفِرَاقِ ..

وَفِي عَصِيَّةٍ ، أَفْرَغَ تَوَثُّرَهُ ، قَائِلًا :

— يَا هَؤُلَاءِ الْمَصْرِيِّينَ !.. لِمَاذَا يَحْشُدُونَ سَيَّارَاتِهِمْ هُنَا ؟

ابْتَسَمَ وَالِدُهُ فِي حَنَانٍ ، وَهُوَ يَقُولُ :

— أَمِنْ الْمُحْتَمِّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ذَوْمًا مَا يُخَيِّفُكَ ؟

زَادَتْ الْعِبَارَةُ مِنْ عَصِيَّتِهِ وَتَوَثُّرِهِ كَثِيرًا ..

إِنَّمَا عِبَارَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بِالْفِعْلِ ..

هُنَاكَ دَائِمًا مَا يُخَيِّفُهُ ، وَمَا يُؤَرِّقُهُ ..

كُلُّ النَّاسِ يَبْدُونَ لَهُ مُخَالَفِينَ لِلْمَنْطِقِ ..

كُلُّهُمْ يَتَصَرَّفُونَ عَلَى نَحْوِ شَدِيدِ التَّعْقِيدِ ، يَضِيْعُ أَعْمَارُهُمْ

وَحَيَاتُهُمْ هَبَاءً ، لِلْحِفَاطِ عَلَى تَقَالِيدِ بَالِيَةٍ عَمِيقَةٍ ، لَا تَتَّفَقُ مَعَ

عَقْلِ أَوْ مَنْطِقٍ ، أَوْ دِينٍ أَوْ شَرِيعَةٍ ..

دَائِمًا يَصِيرُونَهُ بِالْخَنْقِ ..

دَائِمًا ..

وَفِي الْمَطَارِ ، وَدَّعَ وَالِدُهُ وَشَقِيقَهُ فِي حَرَارَةٍ ، وَتَرَكَ وَالِدُهُ

يَشُدُّ عَلَى يَدِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ فِي حَنَانٍ :

***** ١٧ *****

— احرص على مبادئك ، وتقاليديك هناك يا ولدي .

ثم في توثر :

— سأفعل .

ثم عائق شقيقه ، وانطلق ..

وسرعان ما انطلقت به الطائرة بعيدا ..

وحلق مبتعدا كطائر ..

طائر غريب ..



٢ — في السماء ..

« أمي أول مرة ؟ .. »

انتزعه سؤال الراكب المجاور له من شروده ، وهو يتطلع من نافذة الطائرة إلى (مصر) ، التي راحت تبعد وتبعد ، مع مزيج من التوثر والانقباض واللهفة والحزن ، ونهر من الذكريات ، فأدار عينيه إليه في بقاء ، وتحيل إليه أنه يراه لأول مرة ، بعد أن حُلقت الطائرة ، فراح يفرس في ملامحه المكتظة ، ووجهه البدين ، ويقارن دون وعي منه بين جاره الضخم الجثة ، وجسده هو النحيل ، قبل أن يتسم جاره في هدوء ، ويقول في بساطة :

— اسمي (علام) .. (منصور علام) .

أسرع يقول في توثر :

— وأنا (حسن) .. (حسن لطفى) .

عاد (علام) يكرر سؤاله في هدوء :

— أمي أول مرة تسافر فيها خارج (مصر) ؟

تمام (حسن) :

— نعم .

ثم عاد يسأله في اهتمام :

— ولكن كيف عرفت ؟

اتسعت ابتسامته (علام) تملأ وجهه المكتظ كله ، وهو

يقول :

— لقد حلقت الطائرة منذ دقائق ، ولكنك لم تحمل حزام

مقعدك بقدر ، وهذا لا يحدث إلا مع من يسافر لأول مرة
عادة .

أوما (حسن) برأسه إيجاباً في توتر ، وهو يغمغم :

— هذا صحيح .. إنها أول مرة .

عاد الرجل يسأله في شغف :

— عمل ؟

هز (حسن) رأسه نفياً ، وهو يغمغم في توتر :

— بل دراسة .

أوما الرجل برأسه متفهِّماً ، وقال :

— هذا عظيم .. أية شهادة تحمل ؟

أجابه (حسن) في خفوت :

— بكالوريوس الطب والجراحة .

رفع الرجل حاجبيه في دهشة ، وقال :

— لماذا لم تدرس في (مصر) إذن ؟ .. لقد حصل ابن

شفيقتي على نفس شهادتك هذه ، واستكمل دراسته في

(مصر) ، وهو يحمل الآن درجة زمالة كلية الجراحين الملكيين

بإنجلترا ، دون أن يضطر إلى السفر إلى (لندن) ، مثلما تفعل

أنت .

تمام (حسن) :

— لقد سمعت طويلاً ، حتى حصلت على تلك المنحة .

سأله (علام) في اهتمام :

— أهي منحة مجانية ؟

شعر (حسن) بالسؤال يؤلمه ..

نعم .

إنها منحة مجانية ..

كان من المستحيل أن يتخطى حدود (مصر) ، دون

منحة مجانية ..

مرثب والده لعامين كاملين لا يكفي لشراء تذكرة الذهاب

والعودة ، وإقامة لمدة شهرين في (لندن) ..

كانت المنحة المجانية هي فرصته الوحيدة ..

حتى مرثبه كطيب لن يكفيه أسبوعا واحدا هناك . حتى
ولو اكتفى بشرائح البطاطس والماء ..

وفي عصية . أجاب :

— نعم .. إنها مجانية .

كان يتوقع نظرة إشفاق أو ازدراء من الرجل . إلا أنه قد
فوجئ به بهتف في إعجاب :

— رائع .. إننى أحب الشبان المكافحين من أمثالك ..
أتعلم ؟ .. لو أنك جواد فى مضمار السباق . لراحت عليك
بلا تردد .

سأفه أن يشبه الرجل بالجواد . فقال فى حدة :

— إنما أنا شاب عادى . من أسرة فقيرة .

هتف الرجل :

— وهذا ما يجعل الصورة رائعة .

ثم انتزع حافظته من جيب سترته . والتقط منها بطاقة .
ناولها له . مستطرذا فى حماس :

— خذ .. هذه بطاقتى .. يمكنك الاتصال بى عندما تعود

إلى (مصر) .. وثق أننى سأجد لك عملا مناسباً آنذاك .

تم وهو يلتقط البطاقة . ويدسها فى جيبه بلا حماس :

— يا ذن الله .

ابسم (علام) ابتسامة عريضة . ثم اعتدل . وأقبل
جفنيه . قائلاً :

— مفطرة .. سأأخذ بعض الوقت للنوم . فقد أمضيت
يوماً مرهقاً .

ثم عاد يفتح أحد جفنيه . ويلمغم فبسمًا :

— ولاحظ أنك لم تحل حزام مقعدك بعد .

ارتبك (حسن) . وأسرع بحل حزام المقعد . ثم حاول أن
يستريح . أو ينعم بقدر من النوم كالرجل . إلا أن هذا بدا له
عسيرًا . فعاد يتطلع من النافذة . وعاد عقله يسبح فى نهر
الذكريات ..

كان ذلك اليوم هو بداية عامه الدراسى الأخير . وكان قد
التجه إلى الكلية وحده كالمعتاد . واكتفى بتحية مقتضبة .
ألقاها على زملاء الدراسة . قبل أن يتجهى ركنًا قصيًا . ويجلس
صامتًا . يراقب الجميع فى هدوء ..

كانت إحدى هواياته ..

أن يجلس . ويراقب ..

كان يشعر بمتعة شديدة فى تفحص الوجوه . ومحاولة قراءة
ما تخفيه الأنفس ..

وكان الجميع يدون له كأنهم يرتدون أقعة زائفة ..
الفتيات تألقن تألقاً مبالغاً فيه وكأنهن في حفل ساهر ، لا في
مكان يتلقين فيه العلم ..

والفتيان راحوا ينسجون ابتسامات زُلقى مصنوعة ، وكل
منهم يستعرض مهاراته ، ورصيد النكات واللذاعابات ، الذي
يتدرب عليه منذ بدأت إجازة العام الماضي ؛ ليؤكد لنفسه أنه
شخصية طريفة ، يمكنها اجتذاب الجميع ..

مسرح كبير ، يبدل مظهره أقصى جهدهم ؛ ليؤدي كل منهم
فيه دور البطولة ..

وراح يتساءل ..

لم لا يُلْقُونَ عن كاهلهم عبء النظار ؟ ..

لم لا يتعامل كل منهم بطبيعته ؟ ..

لماذا يلجأ الجميع إلى كل هذه التعقيدات ؟ ..

وبينما سبح في تساؤلاته ، سمع من خلفه صوتاً أنثوياً رقيقاً

يقول :

— هل يروق لك المشهد ؟

التفت في دهشة إلى صاحبة الصوت ..

وكانت (مها) ..

وحدها بدت بسيطة الملبس في ذلك اليوم ، الذي تحول إلى
مهرجان للأزياء ..

كانت ترتدي سروالاً أمريكياً أزرق ، من ذلك النوع
الذي يرتديه رعاة الأبقار هناك ، وقميصاً يجمع بين اللونين
الأزرق والأحمر ، في تقاطعات هادئة رقيقة كملاعجها ..

وكانت تبسم ابتسامة رقيقة ، بشفتيها الصغيرتين ،
وتتطلع إليه بعينين عسيتين واسعتين ، تبحث فيهما ضحكة
مرحة ، تتألق على وجنتيها المستديرتين ، وذقنها الدقيقة ..

وكان شعرها مُصنَّفاً على نحو بسيط ، أشبه بذيل الحصان ،
يتوسطه شريط من نفس قماش القميص وألوانه ، مما منحها
بالإضافة إلى جسدها الضئيل ، مظهر طالبة في المدرسة
الثانوية ، خاضعة وهي تجلس إلى جواره في بساطة ،
مستطردة :

— قل باقة عليك : ألا يبدو لك المشهد أشبه بمسرحية
هزلية ؟!

حدق في وجهها في دهشة ..

لقد نطقت بما يدور في ذهنه بالضبط ..

نطقته في بساطة متناهية ، ثم لم تنتظر حتى جوابه ، لتضيف

ضحكة :

— إنه مهرجان للأزياء .

وجد نفسه يتمم مشدوها :

— بالضبط .

ضحكت في مَرَح ، وهي تقول :

— كم يضحكني كل ما يذلونه من جهد .. لم لا يتصرف

كل منهم بطبيعته ؟

مرّة أخرى راح يحدّق في وجهها مشدوها .

كانت كأنما تتزعج الأفكار من رأسه ، وتضعها على

لسانها ، لتلقّي بها من بين شفتيها ، دون أن تنتظر منه جواباً ..

وفجأة .. التفتت إليه ، وهي تبسم قائلة :

— أظن أنه ينبغي أن نتعارف أولاً .. أنا (مها) .

ثم :

— وأنا (حسن) .

اتسمت ابتسامتها ، وهي تقول :

— أعلم .. (حسن لطفى) .

بلغت دهشته ذروتها هذه المرّة ، وهو يبتف :

— هل تعرفينني ؟

أجابته ضاحكة :

— بالطبع .

ثم أضافت في مَرَح :

— ومن في الكلية كلها تجهل غريب الدار ؟

سألها في دهشة :

— من ؟

أجابته ضاحكة :

— غريب الدار .. اسم أغنية (وديع الصافي) الشهيرة ..

إنهم يطلقون عليك هذا الاسم .

هتف في دهشة وغضب واستكار :

— عليّ أنا ؟

نطلعت إليه في قلق ، وتلاشت ابتسامتها ، وهي تقول :

— هل أغضبتك ؟

كان قولها قد أغضبه بالفعل ، إلا أنه خشي أن يعلن غضبه ،

فكتمه في أعماقه ، وهو يهز كتفيه ، قائلاً :

— كلا .

إلا أن فضوله هزمه ، فعاد يقول في جدّة :

— ولكن لماذا يطلقون عليّ هذا الاسم ؟

قالت في بساطة :

— لأنك بالفعل غريب الدار .

ثم اعتدلت ، والتقطت نفساً عميقاً ، قبل أن تستطرد :

— إنك دائماً وحيد منعزل .. لاتصادق أحداً . أو
تشارك في أية نشاطات ، ولكنك في الوقت ذاته مهذب
بسيط ، وهذا يجعل منك في مجملك شخصية غريبة . وهذا
ما جعلنا نمنحك هذا الاسم .

ثم قد حاجبته في ضيق . وهو يقول :

— نشاطات الكلية لا تروق لي

قالت في اهتمام :

— ربما لأنك لم تجربها بعد .

هز رأسه نفياً ، وهو يقول :

— على العكس ، لقد اختبرت كل هذه النشاطات .

خلال المرحلة الثانوية . وسئمتها كلها .

سأله في شغف :

— وماذا عن الصداقات ؟

قال في توثر :

— لست أبحث عنها .

سأله :

— لماذا ؟

أجابها في جدّة :

— لأنني أكره الأسئلة .

تراجعت في دهشة ، ثم ابتسمت في خجل وحياء ،
مغممة :

— هل ضايقتك إلى هذا الحد ؟

كان يرغب في أن يصدّم مشاعرهما ، ويقول إنها قد ضايقته

حقاً ، إلا أنه وجد نفسه يهتف في لهفة :

— مطلقاً .

بدا وكأنها قد شعرت بلهفته ، فقد تألّق وجهها بابتسامة

عذبة رقيقة ، وهي تقول :

— أحقاً ؟

أشاح بوجهه ، قائلاً :

— لست أقول أبداً إلا ما أشر به .

هتفت في حماس :

— وأنا كذلك .

ثم أضافت في حياء :

— هذا يجعل منا صديقين مثاليين .. أليس كذلك ؟

كان يفضل أن يبقى مُشيعاً بوجهه ، إلا أنه شعر بدافع

قويّ للالتفات إليها ، والتطلع إلى جمالها الرقيق ، فاستسلم

لرغبته ، واستدار إليها بوجهه كله ، وابتسم مرتبكاً ،

ومغمماً :

— بللى .
مدّت كفّها الرقيقة لتصافحه ، هاتفة فى مَرَح :

— اتفقنا ..

وتصافحا ..

بل امتزجت أصابعهما ..

ومشاعرهما ..

وقدّراهما ..

« استيقظ .. »

لم يدِر متى ولا كيف استسلم للنوم ، إلا عندما سمع
(عَلام) يقول ذلك ، فانتفض فى مقعده ، وتطلّع غير نافذة
الطائرة فى دهشة ، على حين ابتسم جاره البدين ، وهو يقول :

— لقد وصلنا .. هيا .. اربط حزام مقعدك .

راح يربط حزام مقعده ، وهو يغمغم مرتبكا .

— لست أدري كيف استسلمت للنوم ، لا ريب أنه

الإرهاق .. لقد قضيت الليل كله ساهرا .

ابتسم (عَلام) ، وهو يقول :

— كان هذا أفضل لك ، فلقد تعرّضت الطائرة لمطْب

هوائى ، ونظرا لأنك تسافر لأول مرة ، كان من الممكن أن

يصيبك هذا بالرَّغَب .

*** ٣٠ ***

تتم فى تولّر :

— ليس إلى هذا الحد .

قالها وأطبق شفّيته أمام لسانه ، وكأنها يرغب فى الصمت ،

واكفى بأن يتطلّع من النافذة إلى مطار (هيثرو)

بد (لندن) ، والطائرة تهبط إليه ..

وبدا جسده يرتجف ، حتى أنه لم يشعر بهبوط الطائرة .

حتى سمع جاره يقول فى هدوء :

— حمدا لله على سلامتك .. هيا .. (لندن) تفتح ذراعيها

لك

تتم بعبارة ، لم يفهم هو نفسه معناها ، وانجه مع الرجل إلى

خارج الطائرة ..

لقد وصل إلى (لندن) ..

وصل إلى العاصمة ، التى اختارها لمواصلة كفاحه ..

وسرعان ما أنهى إجراءات وصوله ، وصحبه (عَلام)

إلى خارج المطار ، وهو يقول :

— هل ترغب فى الذهاب إلى مكان ما ؟ .. إننى أعرف

(لندن) كلها ، ويمكننى أن أعاونك لو أردت .

تتم فى عَجَل :

— شكرا .. إننى أعرف طريقى .

ابتسم (عَلام) فى حنان ، وهو يقول :

*** ٣١ ***

— حسنا .. بطاقتي تحوى رقم هاتفى فى (لندن) ،
لا تردّد فى الاتصال بى ، فى أية لحظة تحتاج فيها إلى مساعدة من
أى نوع .

نعم (حسن) :

— سأفعل بإذن الله .

لوح له « علام » بكفه فى حرارة ، ثم أسرع إلى سيارة
تنتظره ، وكرّر وهى تنطلق به :
— اطلبنى وقتما تحتاج إلى .
هاتف (حسن) خلقه :

— شكرا لك .

ثم زفر فى قوّة ، وانجه إلى مكتب البرقيات ، وأرسل
برقتين ، تحويان عبارة واحدة :
— لقد وصلت .

إحداها أرسلها إلى والده ، والأخرى إليها
إلى (مها) .

وفى هذه اللحظة بدأ الطائر رحلته ..
رحلة غريب فى بلاد غريبة ..

***** ٣٢ *****

٣ — الغربية ..

(لندن) ..

عاصمة الضباب ..

المدينة التى لا تتغير أبدا ..

دارت كل تلك الأسماء فى عقل (حسن) ، وهو يجلس
متوترا فى سيارة الأجرة ، التى استقلها من المطار إلى مبنى
الجامعة ، التى سيستكمل فيها دراسته الطويلة ، وعيناه
تفحصان كل ما حوله ، ومن حوله ..

كانت بداية اليوم فى (لندن) ..

الشوارع نظيفة لامعة ، لم تفقد بعد قطرات الندى
الكثيفة ، التى يولدها ضباب الليل ..

الناس يمضون فى طريقهم فى خطوات سريعة نشطة ..

كلهم يرتدون ثيابا نظيفة أيقة ..

كلهم ..

وشعر (حسن) بنشوة جارفة ..

هذا هو المجتمع الذى يحلم به ..

***** ٣٣ *****

(م ٢ — زهور (٣٣) طائر غريب)

مجمع البساطة والنظافة ..

مجمع الحضارة ..

وفي ضعف ، راح يقارن بين تلك الوجوه ، وبين مثيلاتها في

(مصر) ..

الجميع هنا في طريقهم إلى عملهم ، بثياب بسيطة أنيقة .

حتى النساء ، يرتدين أبسط الثياب ، ولمن كنساء (مصر) .

اللاتي يذهبن إلى عملهن متأنقات ..

هذا هو المجتمع ، الذي كان ينبغي له أن يولد فيه ويعيش ..

استغرقته المقارنات « حتى سمع سائق السيارة ، يقول في

إنجليزته الحقيقة :

— لقد وصلنا ياسيدي ..

تمم (حسن) بإنجليزته هو :

— شكراً .

وغادر السيارة متوتراً ، وسأله السائق في خيرة ، وهو

يتطلع إليه :

— أَلَمْ تَقُلْ إنك عربي ، من بلاد البترول ؟

ابتسم (حسن) ، قائلاً :

— أنا عربي مصري .

سأله السائق في اهتمام :

***** ٣٤ *****

— أليس لديكم بترول ؟

تمم (حسن) :

— بلى ، ولكنه يكفينا فحسب

مطَّ السائق شففيه ، وقال :

— لقد قُدِّرَت ذلك .

جاء دُور (حسن) ليشرح بالخيرة ، وهو يلهم :

— لماذا ؟

أجابه السائق ، وهو يدير محرك السيارة ، استعداداً

للانطلاق مبتعداً :

— لأنك لم تدفع بقشيشاً

قالها وانطلق مبتعداً ، لا يلوي على شيء ، وتاركاً خلفه

(حسن) مخنفاً ..

أي بقشيش هذا الذي يطلبه ؟!

ألا يعلم أن أجر السيارة وحده ، قد انتزع ربع ما أتى به

(حسن) ؟!

ألا يعلم أن أجر السيارة وحده ، قد انتزع ربع ما أتى به

أباطرة البترول ؟!

حمل حقيته في خنق ، واجتاز فناء الكلية في تردّد ..

حتى في المجتمع الجامعي ، كان كل شيء يختلف عن

(مصر) ..

***** ٣٥ *****

كان الجميع يوندون ثيابا بسيطة ، أنيقة ، دكرته كثيرا
(بها) ..

كم يشتاق إليها ، على الرغم من أنه لم يفارقها سوى منذ
يومين ..

كم يتوق إلى التحدث معها ..

كم يهواها ..

إنه لا يدري متى تحولت صداقتهما إلى حب جارف ..

كل ما يدريه هو أنهما كانا يتفقان في كل شيء تقريبا ..
في أسرتيهما ..

في آرائيهما ..

في نظرتهما للحياة والبشر ..

لم يختلفا إلا في كونها ابنة وحيدة لوالديها ، وفي رفضها

لفكرة سفره إلى (لندن) ، لاستكمال دراسته ..

ولقد كانت على حق في تبريرها لموقفه ..

لقد سافر حقا كنوع من التحدي ..

كوسيلة لإثبات أنه قادر على إثبات ما حرموه منه في

الجامعة ..

هكذا حياته دوما ..

سلسلة من التحديات ..

***** ٢٦ *****

محاولة دائية ، لإثبات أنه ليس أقل من أفراد ، بل أكثر
نجاحا وتفوقا ..

وفي هذه المرة ، عليه أن يجتاز تحديها جديدا ..

عليه أن يلتقي بمدير الكلية ، ويثبت له أنه يستحق تلك

المنحة

وفي مكتب المدير « راح هذا الأخير يتفحصه في هدوء

بارد ، شأن معظم أهل تلك البلاد ، قبل أن يسأله

— قل لي يا مستر (حسن) .. لماذا لم تستكمل دراستك

في موطنك ؟

غمغم (حسن) :

— وجدت أن استكمالها هنا أفضل

مطأ الرجل شففيه ، وكأنما لم ترق له إجابته ، وقال لي

استهانة

— إنك تحتاج إلى تحسين لغتك الإنجليزية يا مستر

(حسن)

أدهشت العبارة (حسن) ، فغمغم في توتر

— كنت أظن لغتي جيدة يا سيدي

قال الرجل في صرامة

— ليس في (إنجلترا) ..

***** ٢٧ *****

ثم تشاغل بتقليب عدد من الأوراق أمامه ، وهو يقول :
— حسنا .. سأمنحك مهلة لتحسين لغتك ، خلال ستة
أشهر ، وبعدها سترى ما إذا كنت تستحق المنحة أم لا .
شعر (حسن) بغصة في حلقه ، وهو يسمع هذا القول ،
إلا أنه لم يستفهِ بى أن يفهم :

— كما ترى يا سيدي .

عاد الرجل يتفحصه في صمت ، قبل أن يستطرد :
— وخلال تلك الفترة ، ستحصل على مبلغ يكفى لتفقاتك
الشخصية ، أما عن الإقامة والطعام ، فستكفل بهما مستر
(كين) ، الذى سيدرس لك اللغة الإنجليزية ، للأشهر الستة
القادمة .

عاد (حسن) يفهم :

— كما ترى يا سيدي .

تناول المدير ورقة من أمامه ، وناولها له (حسن) ، قائلا
في غطرسة :

— لخذ .. هذا عنوان مستر (كين) .. سأبلغه بالأمر
هاتفيا .. اذهب إليه على الفور .

نعم (حسن) فى مرارة :

— كما تأمر يا سيدي .

وتردد لحظة ، ثم سأل :

— معذرة يا سيدي .. ولكن كيف أصل إليه ؟

رفع الرجل حاجيه فى دهشة واستكار ، وهتف :

— أتسألنى يا مستر (حسن) ؟ .. إنه شأنك يا فسى ،

لا شأنى أنا .

ارتبك (حسن) ، وهو يفهم :

— بالطبع يا سيدي .. بالطبع .. فغذرة .

غادر مكتب المدير وهو شديد التوتر ، جَم الخنى

والغضب ..

إنه لم يترك موطنه ، ليعامل هكذا ..

إنه لم يفارق وطنه ، لتلقفه الأيدي بكل الازدراء

والعالي ..

وألقى نظرة على عنوان مستر (كين) هذا ، فصاعد

الحنق فى نفسه ..

إنه لا يقيم قريبا ..

بل لا يقيم فى (لندن) كلها ..

إنه يقيم فى (دوفر) ..

كيف سيذهب إليه إذن ؟ ..

ومتى ؟ ..

هل ستكفى تلك الجنيحات الإسترلينية الباقية معه ،
كشقات لسفره إلى (دو فر) ؟
كل هذه الأسئلة دارت بذهنه ، ولكنه لم يلبث أن نفضها
عنه في عناد ..

سيذهب إلى (دو فر) ..
سيواجه هذا التحدي الجديد ..
إله لن يستسلم ..

سيواصل طريقه وصموده ..
ومع مغيب الشمس ، توقف به القطار في (دو فر) ..
الميناء البريطاني الشهير ..

مدينة ذات طابع عريق ، بنافس طابع (لندن) ، ويتفوق
عليها برائحة البحر المنعشة ..
هناك أيضا كل شيء نظيف أبيض ، ولكن الحال التجارية
لا تستخدم تلك اللافتات العربية ، كمتاجر (لندن) ..

كل شيء في (دو فر) إنجليزي فح ..
كل شيء يحمل عبق الماضي ، وروح المستقبل ..
وتوقف (حسن) لحظات ، يملأ صدره وعينه بجمال
المدينة . ثم بدأ يبحث عن عنوان مستر (كين) ..
وهنا اصطدم بشيء عجيب ..

***** ٤٠ *****

لم يكن هناك من يمكنه أن يساعده ..

الجميع كانوا يتحركون على نحو سريع متوتر ، ولا يرغبون
في التوقف حتى لإرشاده ، وإذا ما توقفوا ، كانت مساعدتهم
له على هيئة إشارات مُبهمة عاجلة ، لا يمنحونه الوقت الكافي
حتى للاستفسار عنها ..

ولقد أزعجه هذا كثيرا ..

وفي النهاية ، لم يجد أمامه سوى الاتصال بهاتف مسير
(كين) ، المدون في تلك الورقة ، التي أعطاه إياها مدير
الكلية ..

ولقد فعل ..

ظل يستمع إلى رنين الهاتف ، على الطرف الآخر طويلا ..
قبل أن يلتقط أحدهم سقاعة الهاتف ، ويسمع هو صوتا
رفيقا ، يقول بالإنجليزية :

— منزل مستر (كين) .. من المتحدث ؟
أجاب في ثلثم :

— أنا (حسن) .. (حسن لطفي) ..

هتفت صاحبة الصوت الرقيق :

— أوه !!.. مستر (حسن) .. إننا نتظرك منذ وقت

طويل ، لقد اتصل بنا مدير الكلية من (لندن) في الصباح ،
وأخبرنا أنك في طريقك إلينا ..

***** ٤١ *****

نعم في توثر :

— معذرة .. لم أستطع القدوم قبل الآن ، فمواعيد القطارات لم تسمح لي سوى بهذا .
هفت في دهشة :

— ولم لم تستقل إحدى سيارات الأجرة ؟
شعر بحرارة لسواها ، الذي ذكره بأن المبلغ الذي بقي في جيبه لا يكفي حتى لاستئجار عربة تجرها الخيول ، وقال لي تولر :

— لائس أنى غريب .

قالت في سرعة :

— بالطبع .. قل لي : متى ستأتى ؟

قال مربكاً :

— خالما أعرف وسيلة الوصول .

قالت في اهتمام :

— يمكنك أن تستقل سيارة ، و

قاطمها في عصبية :

— ألا توجد وسيلة أخرى ؟

قالها في خنق ، لأنها تكشف قلة ما لديه من مال ، فهتفت

هي :

***** ٤٧ *****

— أوه !! لقد فهمت .

ضاعف هذا من خنقه ، فقد بين له أنها قد أدركت فقره ، فعض على شففيه في مرارة ، حتى كاد يدميها ، وهو يستمع إليها تستطرد :

— جئنا .. متى أنا إليك .. قل لي .. أين أنت ؟

أجابها في جلدة :

— عند محطة القطار .

قالت في سرعة :

— سأصل بعد سبع دقائق على الأكثر .

وأنهت المحادثة على الفور ، في نفس اللحظة التي انهمرت

فيها الأمطار ..

ولقد أدهشه هذا الحظ ، فليس من المألوف في (مصر)

أن تمطر السماء في فصل الصيف ، ولا أن ينقلب الجو بهذه

السرعة ..

وشعر ببرودة مفاجئة ، فضم صدره إلى صدره ، ووقف

ينتظر ..

ومع انتظاره ، تدفق نهر الذكريات مرة أخرى في رأسه ..

تذكر أمه ، وكلماتها الحانية ..

تذكر عبارة (مها) الأخيرة ..

***** ٤٨ *****

عُد يا (حسن) ..

عُد كما أنت ..

لا تتغير ..

وبسرعة شريط سينمائي ، جرت في رأسه وجوه أشقائه ..

(أحمد) ..

و (وهى) ..

و (حنان) ..

وفجأة تسلسل ذلك الصوت إلى أذنيه ، ناعما كموسيقى

عذبة

— أأنت مستر (حسن) ؟ ..

والتفت إلى مصدر الصوت ..

وانقضت على قلبه صاعقة ..

لقد رآها ..

رأى (جينا) ..

٤ — الصاعقة ..

انهار حبل الذكريات كله دفعة واحدة ..

تلاشى ..

تبخر ..

استيقظت مشاعر شتى في أعماقه ..

لم يغد يذكر أمه ، ولا أباه ..

لم يغد يذكر شقيقه وشقيقته ..

لم يغد يذكر حتى (مها) ..

كل هذا مخنته معجزه بشرية ..

فأنة تحسدها (فينوس) إلهة الجمال ، وتغار منها

حسنات العالم أجمع ..

لم يصدق عيه في البداية ..

تصور أنه يحلم ..

بل إنه قد مات ، وانتقل إلى الجنة ..

لم تكن تلك التى تقف أمامه إنسيّة بالتأكيد ..

إنها واحدة من الخور العين ..

إنها حورية ..

بل ملكة الخوريات ..

لقد خفق قلبه في غنف ، وهو يتأمل ذلك الجمال
الأخاذ ..

كانت أمامه فتاة في أواخر عقدها الثاني ، لها بشرة بيضاء ،
مشرقة بخمرة رائعة ، ووجه يضاهي ، يستبدق عند ذقنها
الرقيقة ، يعلوه تاج من شعر كستنائي لامع ، يميل إلى
الشقرة ، وينسدل على كتفها كنهر من خيوط ذهبية حربية ،
وتتطلع إليه بعينين واسعتين ، في لون البحر ، عندما يلتقي
بالسما ، وتنعكس فوقه صورة القمر ، في ليل يخلو من
السحب ، وتسكن فيه كل الأصوات ، فيما عدا نبط
القلوب الخفية ، وأسفل أنفها الدقيق الرقيق فم ، هو تحفة
الخالق فيما خلق ، أحمر كثمرة ناضجة ، مستدير ، رقيق
ومن خلف أهداب كستنائية طويلة ، تطلعت إليه ،
وبابتسامة هي أعذب ما رأى في حياته كلها ، سأله مرة
أخرى :

— ألسنت مستر (حسن لطفي) ؟

مضت لحظات من الصمت ، خشي فيها أن تنفجر شفتاه ،
أو ينطق بكلمة واحدة ، مشفقاً عليها من صوته الأجش ،

***** ٤٦ *****

خشية أن يؤذي أذنيها الرقيقتين ، اللتين تتحليان بقروطين
بسيطتين ، على هيئة فراشتين رقيقتين نخجلان من رقعة الأذنين ،
فتكمشان في حياء واستكانة ..

ثم استجمع إرادته كلها ، ليقول بحروف إنجليزية مرتجفة :
— نعم .. هو أنا ..

اتسعت ابتسامتها ، وازدادت جاذبية وعدوبة ، وهي
تقول :

— مرحباً بك في (دوفر) ..

كالت ترتدي معطفاً جلدنياً ، تنزلق فوقه قطرات المطر ،
وتحمل مظلة صغيرة شفافة ، وهي تشير إلى سيارة أنيقة ، من
طراز رياضي ، مستطردة :

— هيا بنا .. إن والدي ينتظرك ..

نعبها إلى السيارة ، ورآها تتخذ مكانها أمام عجلة القيادة
في حيوية ، فدار حول السيارة ، وجلس على المقعد المجاور لها
صامتاً ، يتطلع إلى جمالها الساحر مشدوهاً مبهوراً ، في حين
أدارت هي المحرك ، وهي تقول :

— متى وصلت إلى (إنجلترا) ؟

غمغم مرتبكاً :

— هذا الصباح فحسب ..

***** ٤٧ *****

قالت في حماس :

— هذا يغني أنك تحتاج إلى الراحة .

ثم لي خجل :

— ليس بالضرورة .

ابتسمت ، وهي تقول :

— كل إنسان يحتاج إلى الراحة ، بعد يوم كامل من السفر

المواصل .

تنهد ، وهو يقول مستسلماً :

— أنت على حق .

كان على استعداد لأن يوافقها على كل عبارة تنطق بها .

وهو يملأ عينيه بحماها الفنان ، الذي يندر أن يجد المرء مثيلاً له
في (مصر) ..

بل في الدنيا كلها ..

لقد شاهد مئات الفتيات ، منذ وصل إلى (إنجلترا) ،

ولكنه لم يشاهد من تفوق هذه الفتاة سحرًا وجمالاً ..

بل لم يجد حتى من تساويها ..

وفجأة ، سأله هي في بساطة :

— لماذا تتطلع إلي هكذا ؟

***** ٤٨ *****

أربكه سؤالها ، الذي ألغته في بساطة ومباشرة ، فاحمر

وجهه خجلًا ، وارتبك وتلعثم ، وتمم :

— إنني .. إنني

لم تنتظر جوابه ، وإنما سأله في اهتمام :

— أتجدني جميلة ؟

وجد نفسه يهتف في حماس :

— بل رائعة .

وخفق قلبه في قوة ..

ما كان ينبغي له أن يقول ذلك ..

لقد أدركت الآن أنه يهيم بحماها ، وسيضايقها أن تصوره

يفازها .

هذا ما جال بخاطره ..

ولكن الفتاة ابتسمت في سعادة ، وهتفت :

— أوه !! شكرًا لك .

شجعه هذا على أن يتمم :

— إنها الحقيقة .

تهللت أساريرها في مزح ، وهي تقول :

— شكرًا .. إنك لطيف للغاية .

كانت بسيطة وتلقائية للغاية ، على عكس فتيات (مصر) .

***** ٤٩ *****

اللاقي يملن إلى التعقيد والمراوغة ، ويهوين لعبة القبط والفأر
طيلة الوقت ، حتى بعد الزواج ..

إنها تختلف عنهن تمامًا ..

كم أسعده أن يلتقي بفتاة مثلها ..

وفي هدوء وثقة ، سأهاها مبتسمًا :

— ألم يخبرك أحد من قبل بذلك ؟

كان يتوقع منها أن تنفي هذا ، وأن تؤكد له أنه أول من مدح
جمالها ، أو أشار إليه ، إلا أنه فوجئ بها تقول في بساطة :

— بلى .. الجميع أخبروني بذلك ..

ضايقه جوابها ، وتلك البساطة التي نطقته بها ، وبداله أنه
يشعر بالغيرة من هؤلاء (الجميع) ، فتمتم :

— من هؤلاء ؟

هزت كتفها في بساطة ، وهي تقول :

— أصدقائي ..

سأها في غيرة واضحة :

— أفتيات هم أم فتيان ؟

ابتسمت وهي تقول :

— النوعان ..

ثم قالت ضاحكة :

***** ٥٠ *****

— إنك لم تسألني بعد عن اسمي ..

أدهشه أنه لم يفعل حقًا ..

لقد شغله جمالها عن اسمها ..

وفي حجل ، غمغم :

— لننقل إنني أسألك الآن ..

أجابت على الفور :

— اسمي (جينا) ..

بداله ، من لحظة الصمت التي أعقبت ذلك ، أنها
ستكتفي بهذا القول ، إلا أنها لم تلبث أن تابعت :

— في الكلية يخاطبونني باسم مش (كين) ، أما الأصدقاء

فينادونني (جيني) .. أنعلم ما معنى كلمة (جيني) ؟

ابتسم وهو يتمتم

— نعم .. إنها تعني أنك جنيّة ، مثل تلك التي تخرج من

مصباح (علاء الدين) ..

هتفت في جذل :

— هذا صحيح .. أنت تعرف قصة (علاء الدين) ..

أليس كذلك ؟

أجابها في شغف :

— بلى .. إنني أحفظها عن ظهر قلب ..

***** ٥١ *****

هتفت في حماس :

— ستقصتها عليّ .. أليس كذلك ؟

نعم في حنان ، وهو يتفرس في ملاحظتها الرائعة .

— سأفعل حتماً .

قالت وهي تشير إلى السماء :

— انظر .. لقد انقضت السحب ، وأشرقت الشمس

مرة أخرى .

غمغم في دهشة :

— عجيباً !!! .. كانت تمطر منذ لحظات

ضحكة قائلة :

— ما دمت ستقيم بيتنا ، فمن الضروري أن نعتاد مناخ

(إنجلترا) المتقلب .. إنها دائماً هكذا . تغادر منزلك في جو

صحو ، فتهمر الأمطار فوق رأسك ، وعندما تسرع بفتح

مظلتك . يعود الجو صحوً . فإذا ما أغلقتها انهمرت الأمطار

على رأسك مرة أخرى .

ابتسم قائلاً :

— إني هذا الخدع

عادت تضحك في مزح . وهي تقول :

— بالتأكيد .

ثم استطردت في سرعة :

— أَلَمْ تلاحظ أن الجميع هنا يحملون مظلاتهم ، حتى عندما

يكون الجو صحوً ؟

نعم مبتسماً :

— لقد لاحظت ذلك .

أطلقت ضحكة عابثة ، ثم قالت في حُبث :

— لهذا تعرفتك على الفور ، فلم تكن تحمل مظلة .

شاركها ضحكة مريحة . امتزج بخلافها صوتاهما ، قبل أن

تضغط هي كمّاحة سيارتها ، قائلة :

— لقد وصلنا .

توقفت أمام منزل من طابقين ، تحيط به حديقة رائعة

غناء ، تحوى العشرات من أحواض الزهور المتنوعة ،

وتوسطها نافورة أنيقة ، على هيئة تمثال (كيبيد) إله

الحب ، وهو يحمل قلباً كبيراً ، تتدفق منه المياه داخل حوض

رومانى جميل ، وهتف (حسن) مبهوراً :

— أهذا منزلك ؟

هزت رأسها نفياً ، وهي تقول :

— بل منزل والدي .

سألها في دهشة ، وهو يغادر السيارة خلفها .

— وما الفارق ؟

رفعت حاجبها ، وهي تبسم قائلة :

— فارق كبير هنا .

سأها في دهشة :

— هنا في (دوقر) .

أجابته في بساطة :

— بل في (إنجلترا) .

ولى تلقائية شديدة ، أمسكت يده بكفها ، قائلة :

— هيا .. إن أبى ينتظر مقابلتك .

تبعها وهو يرتجف ، وقلبه يخفق كطير صغير ، ولملمس

كفها البضة يشعل في نفسه النيران ..

إنها تختلف ..

تختلف تمامًا عن فتيات (مصر) ..

تختلف كلية ..

ولم يكده يدلف إلى المنزل ، حتى وجد أمها أمامه تبسم ..

عرف أنها أمها على الفور ؛ لأنها كانت نسخة طبق الأصل

منها ..

ولى أرقبائك حاول أن يجذب يده من كفها ، خشية أن

تغضب أمها ، إلا أن (جينا) أطبقت على يده بأصابعها ،

وهي تقول :

***** ٥٤ *****

— أمها .. هاهو ذا مستر (حسن) .

لم يزد على الأم أنها قد لاحظت كفها في يده ابتها ، أو أن هذا

يغيبها كثيرًا ، وهي تبسم قائلة :

— مرحبا بك في (إنجلترا) يا مستر (حسن) .. ستروق

لك الإقامة هنا حتمًا .

ثم مرتبكا :

— شكرًا يا سيدتي .

هتمت (جينا) :

— أمها .. إنه يسافر منذ الصباح الباكر ، وأظنه جائعًا .

قالت الأم في حنان :

— سأعد لكم الطعام على الفور .

دفعت (جينا) باب حجرة جانبية ، وهي تقول :

— هذا عظيم .. مستاوله بعد أن يفرغ من مقابلته مع أبى .

قالت هذا ، وجذبت (حسن) إلى داخل الحجرة ..

وتسمر (حسن) مشدوقًا ..

كانت الحجرة عبارة عن مكتبة ضخمة ، اجلست كل

الجدران ، واكظت بآلاف الكتب والخطوط ، ويتوسطها

مكتب عريق ، جلس خلفه رجل وقور ، أشيب الفؤدين ،

يدخن غليونًا أثريًا ، رفع عينيه يتأمل وجه (حسن) من خلف

عدسة نظاره الطبي ، قبل أن يقول في هدوء :

***** ٥٥ *****

— مستر (حسن لطفى) .. أليس كذلك ؟

نعم (حسن) :

— هو أنا يا سيدي .

ابتسم الرجل ، مغفماً :

— عظيم .

ثم أشار إلى ابنته ، قائلاً :

— اتركينا وحدنا يا (جيني) .

ابتسمت (جينا) ، وهي تقول :

— حسناً .. سأشارك أُمِّي في إعداد الطعام .

وأسرعت تنصرف ، و (حسن) يتابعها ببصره مهوَّراً ،

حتى قال مستر (كين) في هدوء :

— لقد أخبروك بسبب قدومك إلى هنا يا مستر

(حسن) .. أليس كذلك ؟

نعم (حسن) :

— هذا صحيح يا سيدي ؟

تراجع (كين) في مقعده ، وراح يتطلع إليه بعض الوقت .

قبل أن يقول في هدوء شديد :

— يبدو أن لغتك الإنجليزية معقولة يا مستر (حسن) .

ولن نستغرق وقتاً طويلاً ، حتى نتحدثها على نحو جيد .

ثم اعتدل ، ونهض من خلف مكتبه ، مستطرداً :

— وهذا يستلزم منك جهداً كبيراً ، لتقن اللغة على نحو

يؤهلك للتعامل مع المرضى على نحو بسيط ودقيق .. صحيح

أنك لن تبلغ أبداً براعة أى بريطانى في نطق لغته ، ولكننا

سنسعى لبلوغ أفضل مستوى ممكن .

نعم (حسن) :

— سأبذل أقصى جهدي يا سيدي ، ولكن ..

تردد لحظات ، فسأله الرجل في هدوء :

— ولكن ماذا يا مستر (حسن) ؟

قال (حسن) في ارتباك :

— أين سأقيم حتى ذلك الحين ؟

أجابه الرجل في بساطة :

— هنا .

تألفت عينا (حسن) ، وخفق قلبه في قوة ..

هذا أفضل مما كان يحلم به ..

سيقيم معها في منزل واحد ..

مع الفتاة الكستانية الشعر ..

مع (جينا) ..

٥ - قصة حب ..

حدثت (مها) في صفحات ذلك الكتاب الضخم ، الذي
تستذكر منه دروسها ، وراحت تقلب تلك الصفحات في
بطء ، دون أن تلتقط عيناها حرفا واحدا منها ..

كانت شاردة غافا ..

لم تكن أفكارها تتركز على معلوماتها الطبية ..

أو حتى إلى نفسها ..

كانت تسبح هناك ..

في (لندن) ..

وكان قلبها يعترف لحن حب ناعم ، يتسلل عذرا إلى
وجدانها ، فتراقص له خلاياها ، في مزيج من الهيام ، غلة
والشجن ..

لقد مضى أسبوعان كاملان ، منذ وصلتها برفقة
(حسن) ، التي يعلن فيها وصوله إلى (لندن) ، دون أن
تتلقى منه كلمة واحدة أخرى ..

أسبوعان كاملان لم تدر فيهما شيئا عن أحواله ..

وكان هذا يقتلها ..

إنها تحبه مثلما لم تحب ، ولن تحب ، ولا تتصور أن تحب
من قبل ومن بعد ..

لقد غاص حبه في أعماقها ، واستقر في كل ذرة من
كيانها ..

تحبه ..

تحبه ..

تحبه ..

تري أيدرك قوة حبها له ؟ ..

تري أيتها بالقدر ذاته ؟ ..

من المستحيل أن تحيب عن السؤالين بالإيجاب ..

صحيح أنها تشعر بقلبها أنه يحبها ..

صحيح أنه يرتجف مثلها للمساتهما العفوية ، ويدوب

لحديتهما الرقيق ، إلا أنه لم يصرح لها أبدا بحبه لها ..

لم يشاركها أبدا أفكاره ..

إنه دوما صامت منظر ..

حتى معها ..

لم يتزعجه حتى الحب من قوقعته ..

كان يحيا وكأنما راق له أن يظل غريبا

وحيدا في مجتمع مزدحم ..

ولقد بذلت أقصى جهدها . لتتزعده من ذلك ..

وفشلت ..

وعلى الرغم من فشلها . طيلة عامين من تعارفهما . في حبه

على الخروج من سجنه الاختياري . والبوح لها بمكنون قلبه .

إلا أنها ظلت تحبه بالقدر نفسه ..

بل لقد تضاعف حبها له ..

ولكنها أيضا أخفت عنه سيرها ..

أخفت عنه أنها تحبه منذ عام كامل . قبل أن تتحدث إليه .

لقد بدأ الأمر بتلك العبارة . التي أطلقناها عليه مجموعتها ..

عبارة (غريب الدار)

كانت في البداية تضحك لها ..

ثم بدأت تتأملها ..

وتأمله ..

وفجأة . وجدت نفسها غارقة في حبه ..

لقد أدركت أنه — بحسب رأيها — منظر : لأنه أدكى من

كل من حوله . وأكثر منهم رقة وشاعرية .. وهديثا ..

لقد شعرت بذلك في كل لمساته . وتصرفاته . وأسلوبه ..

***** ٦٠ *****

وعيشا حاولت — طوال عام كامل — أن تلفت انتباهه

إليها ..

استخدمت كل وسائل المصريات ..

تعهدت أن تسير أمامه . وتتحدث في صوت مرتفع .

أو تترك كتبها تسقط عند قدميه ..

ولكنها أبدا لم تلفت انتباهه إليها ..

صحيح أنه هب ذات مرة . يعاونها في التقاط كتبها .

ولكنه فعل دون أن يرفع عينيه إليها بنظرة واحدة ..

وهنا ألقت خلفها تلك المحاولات الضيائية ..

وبدأت معه الأسلوب المباشر ..

وبجحت ..

كانت تشعر بخجل شديد وهي تفعل ذلك . إلا أن أسلوبه

وبساطته لم يلبث أن انتزعها الخجل من أعماقها . وزرعها بدلا منه

حديقة من الارتياح والثقة . جعلها بساطتها طيعة . ومذا

بينهما جسور التفاهم والفهم لأول مرة ..

ثم كان خلافهما الأول . بعد عامين ..

لم يختلفا إلا حينما برزت في رأسه فكرة السفر .

كانت تعلم أنه عنيده . وأنه لن يتنازل عن سعيه وراء

الحاج والتفوق أبدا . ولكنها كانت تخشى أن يسافر . وأن

ينفنى بفتاة أخرى هناك

***** ٦١ *****

لم تكن تخشى ذلك لضعف ثقتها في نفسها ، وإنما معرفتها
بجانب من شخصية (حسن) ..

ذلك الجانب المحب لليساطة والجمال ..
كانت تعلم أنه سيجد الفتيات هناك أكثر بساطة وجمالاً
وأكثر تحرراً ..

وكانت تخشى أن يهره ذلك ..
وأن يستميله ..

كانت وكأنها يتباً قلبها بالمستقبل ..
وعندما لم يرسل إليها أية خطابات ، طيلة الأسبوعين
الماضيين ، وفر هذا الاعتقاد في قلبها ، وأرجف نفسها
وراحت تنتظر في أمل خطايا منه ..
أو عنواناً ترسل خطاباتاً إليه ..
وطال انتظارها ..
طال كثيراً ..

زهرة داعبت أنف (حسن) ..

زهرة عطرة رقيقة ، لامست أنفه في رفق
وأيقظته ..

أزاح الزهرة بأنامله ، وفتح عيبه في بطنه ، يتطلع إلى
ما أمامه ..

***** ٦٢ *****

وارجف جسده كله ..

هل يحلم ؟ ..

هل انتقل إلى الجنة ؟ ..
كلّاً ..

هذا الجمال الساحر الفنان يوجد في الدنيا أيضاً ..
إنها (جينا) ..

اختلج قلبه فجأة في غنى ..
(جينا) ؟ ..

في حجرة نومه ؟ ..

هَبْ جالساً على الفراش ، وهو يتف في دهشة واستكار :
— (جينا) ؟ .. ماذا تفعلين هنا ؟

ابتسمت أعذب وأجمل ابتسامة رآها في حياته ، وهي
تقول

— أردت أن أوقفك بنفسى ..

كانت ترتدى ثوباً وردياً ، بدا متناسقاً مع لون بشرتها ،
وذلك اللون الذي صبغت به شفيتها الجميلتين ، وتركت
شعرها الكستاني المائل إلى الشقرة يسدل حراً على كفتيها ،
وهي تمسك بزهرة حمراء ، صنعت مع بشرتها وثوبها وشفيتها
لوحة رائعة ..

***** ٦٣ *****

وبهره ذلك لحظات ، ثم لم يلبث أن تساءل مرة أخرى عن
سر جراتها ، في اقتحام حجراته ، وإيقاظه ..
حتى شقيقته لا تفعل ذلك في (مصر) ..
وعاد يسألها في توثر :
— كيف دخلت إلى حجرتي يا (جينا) ؟
ضحكت وهي تقول :
— لقد دفعت الباب .
خجل إليه أنها لم تفهم مغزى سؤاله ، فعاد يكرر في توثر :
— وماذا عن أمك ؟
سأله في دهشة :
— ماذا عنها ؟
سأل في همس مضطرب :
— هل تعلم أنك هنا ؟
أتاه الجواب على لسان الأم ، التي أطلت برأسها داخل
الحجرة ، وابتسمت ابتسامة عريضة ، وهي تقول :
— هيا يا (جيني) .. هيا يا (حسن) .. لقد أعددت
طعام الإفطار .
تطلع إلى الأم في دهشة ، إلا أن تطلعه إليها لم يدم طويلاً ،
لقد نظقت عبارتها واختفت خارج الحجرة . في حين قالت
(جينا) في مزح :

— هيا .. أنت تعلم أن والدي يكره الانتظار .
ثم أسرع تغادر الحجرة في رشاقة وضح ..
وغادر هو فراشه في خيرة ..
ياله من مجتمع !!
كل شيء فيه يتم في بساطة متناهية !!
لو أن (جينا) هذه مصرية ، ورائها أمها داخل حجرة
شاب عزب ، لانهاالت عليها ضرباً ، حتى ولو كانا يستذكران
دروسهما -
أما هنا ، فالمنطق والعقل يحكمان كل شيء ..
إنه مجتمع الفضل ..
حتى وهو يرتدي ملابسه ، للهبوط وتناول الإفطار ،
وجد في ذلك متعة ، ففي منزله ، لم يكن هناك ضرر في أن
يتناول إفطاره ، وهو يرتدي منامته ..
بل إنه عادة ما يفعل ذلك -
أما هنا ، فكل شيء يتم في نظام وتنسيق ..
وعندما هبط إلى حيث مائدة الطعام ، كان وجهه يحمل
ابتسامة عريضة ، وهو يقول لمعلمه في لهجة مهذبة :
— صباح الخير يا ماستر (كين) .
ابتسم الرجل ، وهو يقول :

— صباح الخير يا مستر (حسن) .. من الواضح أنك
الإنجليزية تتحسن بسرعة ..

قال في احترام :

— الفضل يعود إليك يا سيدي ..

أوماً الرجل برأسه في زهو ، ثم قال في هدوء :

— وإلى (جيني) ..

السمت عينا (حسن) ، وهو يقول في دهشة :

— (جيني) ؟ ..

أوماً الرجل برأسه إيجاباً مرة أخرى ، وقال :

— بالطبع .. أفضل وسيلة لتعلم لغة جديدة ، حتى أن

حدث بها المرء مع أحد أبنائها ، وأنت و (جيني) تحدثان

كثيراً ، وهذا يحسن لغتك بالطبع ..

علمهم (حسن) مرتباً :

— بالطبع يا سيدي ..

أشار إليه الرجل ، قائلاً :

— حسنًا .. اجلس وتناول طعام إفطارك ..

جلس (حسن) في هدوء ، وراح الجميع يتناولون طعام

الإفطار في صمت تام ، على عكس ما كان يفعله في (مصر) ،

حيث كانت فترة الإفطار عبارة عن حوار متصل ، قد تضاف

***** ٦٦ *****

إليه بعض النكات ، أو يتحول إلى مشاجرة ، حسبما يؤدي إليه
الحوار ..

وبعد الإفطار ، تطلع مستر (كين) إلى ساعته ، وقال :

— هيا .. مئوسلاتي أنت و (جيني) إلى الكلية

بالسيارة ، وسأعود وحدي ..

سأله (حسن) في خيرة :

— لماذا يا سيدي ؟

أجابه الرجل ، وهو يشعل غليونه في وقار :

— لأنك ستذهب مع (جيني) إلى (لندن) ، لنحن

نحتاج إلى بعض المشتريات من هناك ، وستجدان لي

اشتراكات بعض المجلات المتخصصة ..

اخترج قلبه في ضيئة ..

سيقضي يوماً كاملاً مع (جينا) ..

مع جملة الفنان ..

ونبض قلبه في سعادة جمّة ، تحولت إلى فرحة غامرة ،

والسيارة تنطلق بهما ، في طريقها إلى (لندن) ، بعد أن

أوصلا الأب إلى كليته ..

كان يحضن (جينا) بعينيه ، ويضمها إلى قلبه ، وهي

تقود السيارة في صمت ، حتى ضحكت في مزح ، وهي تقول :

***** ٦٧ *****

— ألا تملّ التطلع إلى أبدا ؟

نعم في هيام :

— مطلقا .

رأى ابتسامتها الواسعة ، التي تحمل فرحة حقيقية ، وهي تسأله :

— قل لي يا (حسن) : كم يبلغ عمرك ؟

نعم في عُفوف :

— إنني في السادسة والعشرين من عمري .

هتفت ضاحكة :

— يا إلهي !! إنك عجوز للغاية .

ضحك بذوره ، قائلا :

— ليس إلى هذا الحد .

قالت في مزح :

— بالنسبة لي على الأقل ، فأنا في التاسعة عشرة من

عمري .

نعم :

— أعلم ذلك .

سأله في شغف :

— هل لك صديقة ؟ .. أغني هل أحيت من قبل ؟

***** ٦٨ *****

صمت لحظات ، وقد أدهشه سؤالها ، وراح يتأمل ملامحها الفاتنة ، وهو يتساءل في أعماقه ..

هل أحب حقاً من قبل ؟ ..

أكان ما بينه وبين (مها) حباً ، أم أنه انجذاب منطقي عقلائي ؟ ..

سبب له التساؤل بعض الخيرة ، فقال :

— ليس بالمعنى المعروف .

ضحكت ، وهي تقول :

— ما الذي يعنيه ذلك ؟ .. في الحب يكون الجواب دوماً

بنعم أو لا . إنه أمر محدود للغاية .

تردد لحظة ، وقال :

— هل يضايقك أن أجيب بنعم ؟

هزت كتفها ، وهي تقول :

— كلا .. كان سيدهشني أن تجيب بـ (لا) .. فمن

المستحيل أن تبلغ السادسة والعشرين من عمرك ، دون أن

تحب ، ولو مرة واحدة على الأقل .

تردد لحظة أخرى . ثم سأها :

— وماذا عنك ؟

ابتسمت ، وهي تقول :

***** ٦٩ *****

— أتقصد أن تلقى على السؤال ذاته ؟

أجابها في اهتمام مشوب بالقلق :

— نعم .. هل أحببت من قبل ؟

أجابته في بساطة أدهشته :

— نعم .. مرة أو مرتين .

هتف في استكبار :

— ما معنى هذا الجواب ؟ .. ألا تذكرين كم مرة أحببت ؟

هزت كتفها مرة أخرى ، وقالت :

— لست أقصد ذلك ، وإنما قصدت أن ما شعرت به في

المرتين يصعب الجزم بأنه حب ، فقد كنت في المرة الأولى في

الخامسة عشرة فحسب .

قال في جدّة :

— الحب ليس أمراً هيئنا إلى هذا الحد .

ابتسمت ، وهي تقول :

— على العكس .. إنه ليس أمراً معقداً .. الحب عاطفة تنبع

من القلب ، لا شأن للعقل والمنطق بها ، وهي عاطفة تلقائية

بسيطة ، لا يمكن تقنينها ، أو وضع الضوابط لها .

قال في عصبية :

— من قال هذا ؟ .. حتى الحب له ضوابطه ، فأنا لا أحب

زوجة رجل آخر مثلاً .

***** ٧٠ *****

سأله في اهتمام :

— لماذا ؟

قال في جدّة :

— لأنها زوجة رجل آخر .

هزت رأسها نفياً ، وهي تبسم قائلة :

— أخطأت التعبير إذن ، فأنت قد تحبها ، لأنك لا تملك

أن تفعل أو لا تفعل ، ولكنك لن تصرّح لها بحبك ، وهذا

ما غلكه .

كان حديثها منطقيًا ، ممّا جعل وجهه يحترق ، وهو يتمم :

— نعم .. أنت على حق .

ثم عاد يسألها في جدّة :

— ولكن هذا لا يفيى عدم القدرة على التحديد .. أمرتين

أحببت أم مرة ؟

سأله ضاحكة :

— ولماذا تتحدّ هكذا ؟

هتف في عصبية :

— هذا شأني .

ضغطت كمّاحة السيارة فجأة ، وانحرفت بها ، ثوقفها

على جانب الطريق . وتلفت إليه . هاتفة :

***** ٧١ *****

٦ — طائران ..

وصلا إلى (لندن) كطائرَين ، يملَّقان في سماء الحب ..
وأنتما كل مايتغيان في ساعة واحدة ، دون أن تتفارق
أصابعهما لحظة ، ثم قالت (جينا) في لفة :

— مارأيك ؟ لقد اتبعنا كل ما طلبته أُمِّي ، وجددنا كل
اشتراكات مجلات أبي الغريبة .. فلنحصل على جولة داخل
(لندن) .. هل زرتها من قبل ؟

أجابها هائما :

— ساعات معدودة ، يوم وصولي فحسب .

هتفت في حماس :

— ساعات معدودة ؟ .. (لندن) نحتاج إلى سنوات

لرؤيتها كاملة ..

من قصر (باكنجهام) إلى متحف مدام (توسو) .. إنها

تاريخ .

قال مبتسما :

— (حسن) .. هل تغار ؟

فاجأه سؤالها وأدهشه ، فارتبك مغمغما :

— إنني .. في الواقع ..

أمسكت كفه في حرارة ، وهي تقول :

— نسيت أن أخبرك أنني أحب الآن ..

هتف بأنفاس لاهثة منفعلة :

— تحبين ؟

تطلعت بعينيها الزرقاوين إلى عينيه السوداوين ، وهي

تقول في حرارة :

— نعم يا (حسن) .. أحبك .

واختلج قلبه ..

وذاب ..



— لا أظننا سنجد هذه السنوات .

هتفت :

— رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة .. وسنبدأ هذه الخطوة الآن .

لم يكن يتم كثيرًا بما سيأهدها ..

كان كل ما يهمه هو أن أصابعهما وأكفهما ستبقى متشابكة لأطول وقت ممكن ..

إن أصابعه لم تعانق أصابع (مها) أبدًا ..

لقد تصافحا فقط ..

مرّة واحدة ضغط كفها ، فاحمرّ وجهها خجلًا ..

وكان ذلك يوم وداعهما ..

إنها تختلف كثيرًا عن (جينا) ..

صحيح أنها بسيطة ، بالنسبة للفتيات المصريات ، ولكنها

شديدة التعقيد ، بالمقارنة بـ (جينا) ..

(جينا) هي البساطة مجسّمة ..

لقد استغرقت علاقه بـ (مها) عامين ، لم تُثِرْ فيهما

(مها) مرّة واحدة إلى أنها تحبه ..

أما (جينا) ، فقد قالتها بكل صراحة ، بعد أسبوعين

فقط ..

***** ٧٤ *****

فارق رهيب بين الفتاتين ..

فارق تربويّ وخضاريّ واجتماعيّ ..

لقد قضى مع (جينا) خمس ساعات كاملة ، يجوبان

(لندن) الحقيقة العريضة ، دون أن تفارق أصابعهما لحظة ،

حتى غابت الشمس ..

وهنا فقط شعر بالقلق ، وقال :

— (جيني) .. ألم يحن وقت العودة بعد ؟ .. إن الرحلة

بالسيارة تستغرق ثلاث ساعات على الأقل .

تطلّعت إليه بعينها الواسعتين ، وقالت :

— يمكننا أن نؤجل ذلك إلى الغد .

حدّق في وجهها بدهشة ، وقال :

— ماذا تعنين ؟

قالت في خُفوت :

— أغنى أنه يمكننا أن نقضى الليل هنا ، ونعود في الصباح .

أفزعته ذلك الحفاطير ، الذي دار بذهنه ، عن معنى

عبارتها ، إلا أنه لم يلبث أن نفّسه عن ذهنه ، وأكد لنفسه أنها

تتحدث ببساطة المعهودة ، فقال :

— لن يروق هذا لوالديك يا (جيني) .

عقدت حاجبها ، وهي تقول في جدّة :

***** ٧٥ *****

— ليس لوالدي شأن بذلك .. إنها حياتي الخاصة
هتف لي دهشة :

— ولكنهما والداك ..

ضربت قدمها بالأرض لي غضب ، وهي تهتف :

— هذا لا يمنحهما حق التحكم في حياتي

قال لي خيرة :

— ما الذي تمنحهما أبوتهما لك من حقوق إذن ؟

هتفت مُخنقة :

— لا شيء .. إنها تمنحني أنا فقط كل الحقوق ، فهما

أنجباي ، دون أن يسألاني رأيي في ذلك ؛ لذا فهما ملزمان

بمنحني كل ما يمكنهما ، وكل ما أطلبه ؛ أما أنا فليس من حقهما

على شيء .. أي شيء ..

راح يتأملها لي دهشة ، وهو يتساءل لي خيرة عن انقلابها

المفاجئ هذا ..

لقد ذهبت كل رقتي ، وبدت له خشنة قاسية ..

وعقد حاجبيه بدؤره ، وهو يقول :

— (جيني) .. هذا الأسلوب لا يروق لي

لوححت بلداوعها في جذة ، هاتفة :

— هذا شأنك ..

قال لي غضب :

— حسنا .. سنعود ..

صاحت مُخنقة :

— فليكن ..

وأدارت محرك سيارتها لي عصبية ، وانطلقت بها في طريق

القردة ..

وطوال الطريق لم تتبادل معه حرفا واحدا ، حتى عندما

غمغم لي تؤثر :

— (جيني) .. إنني لم أقصد

بتر عبارته ، عندما رآها تشيح عنه بوجهها ، وتضغط

شفتيها بأصابعها لي غضب ، ولاحظ أنها قد زادت من سرعة

السيارة لي عصبية ، فلزم الصمت تماما ، حتى توقفت السيارة

أمام منزل مستر (كين) لي (دوثر) ، فغمغم لي تؤثر :

— لقد وصلنا في أقل من ثلاث ساعات ، و

لم تترك له الفرصة لإتمام عبارته ، بل قفزت خارج

السيارة ، وأغلقت بابها خلفها في عُنف ، وتركته غارقا في عرقه

وارتباك ، حتى أنه لم يجرؤ على مغادرة السيارة إلا بعد ثلاث

دقائق كاملة ، وتوجه إلى المنزل بخطوات مرتجفة ، واستقبلته

أم (جينا) داخله ، وهي تسأله في قلق :

— ماذا حدث ؟ .. ما الذى أغضبها هكذا ؟

ارتبك وتلخثم ، وهو يغمغم :

— سيدي .. أقسم لك إننى لست

قاطعه ، وهى تربت على كتفه فى حنان :

— لم يتهمك أحد بذلك يا (حسن) .

وزفرت فى قوة ، قبل أن تصيف :

— هكذا هى دوماً .

تضاعف ارتباكك ، وهو يغمغم :

— إننى لم

قاطعه مرة أخرى :

— لا عليك — اذهب إلى (كين) .. إنه ينتظرك فى مكتبه

منذ ساعة .

تصيب عرق بارد على وجهه ، وهو يطرق باب مستر

(كين) ، ويبط قلبه بين قدميه ، عندما سمع صوته الصارم

يقول :

— ادخل .

دفع الباب فى تولر ، ورأى مستر (كين) يجلس خلف

مكتبه ، ويتطلع إليه فى صرامة ، من خلف عويناته ، فغمغم فى

ارتباك :

***** ٧٨ *****

— معذرة يا سيدي .. إننى

قاطعه (كين) فى جدّة :

— إنك لم تأت فى موعد دروسك بالمستر (حسن) .

قال (حسن) فى تولر بالغ :

— لقد أردت أن

قاطعه فى صرامة :

— الرجل الجاد يحافظ على مواعيده دوماً بالمستر

(حسن) .

غمغم (حسن) :

— إنها (جينى) .. لقد

ضرب (كين) سطح مكتبه بقبضته فى عنف ، وهو يهتف

— لا شأن لـ (جينى) بعملك بالمستر (حسن) .. إنك

هنا لتعلم ، لا تقضى يومك فى نزهات سخيفة .

أطرق (حسن) بوجهه فى حياء ، وهو يغمغم :

— إننى أعتذر .

لوح (كين) بكفه ، هاتفاً :

— وأنا أرفض هذا الاعتذار .

حدق فى وجهه بدهشة ، وقال فى تولر :

— وماذا ينبغى أن أفعل يا سيدي ؟

***** ٧٩ *****

صاح الرجل في صرامة :

— أن تصاعف ساعات الدروس غذا .

هتف في دهشة :

— فقط ١٩ ..

قال الرجل في جدّة :

— هذا هو الاعتذار العملي .

تنفّس (حسن) الصُّعداء ، ولم يصدق أن الأمر قد انتهى

عند هذا الحدّ ، فقال في لهفة :

— كما تأمر يا سيّدي .

وتردّد لحظة ، ثم أضاف :

— وماذا عن اليوم ؟

لوح الرجل بكفه ، قائلاً في لهجة استعاد خلالها هدوءه :

— لا درس اليوم .

مرّة أخرى تنفّس (حسن) الصُّعداء ، وغمغم :

— حسناً يا سيّدي .. كما تأمر .

وأمرع ينصرف من حجرة مكتب (كين) ، واستقبلته

زوجة هذا الأخير بضحكة خافتة ، وهي تقول :

— ماذا فعل بك ؟

أجابها في لهفة :

***** ٨٠ *****

— لاشيء .. أين (جيني) ؟

قالت وهي تغمر بعينها في لحث ، وترتّب على كتفه :

— في حجرها ..

تردّد ، وتصاعدت حمرة الخجل إلى وجنتيه ، فأضافت

متبسمة :

— لا تذهب إليها .

غمغم في دهشة :

— ماذا يا سيّدي ؟ ..

اتسمت ابتسامتها ، وهي تقول :

— إنني أنصحك ، فأنا أعرف ابنتي جيّداً ، لو أنك

ذهبت تترضيها فتعتمد إذلالك ، وتهرك في غنّف ، أمّا

لو تجاهلتها

لم تم عبارتها ، واكتفت بضحكة قصيرة ، فغمغم في

خجل :

— كما ترين يا سيّدي .

رثت على كتفه مرّة أخرى ، وقالت :

— استمع إلى نصيحة أمّ إنجليزية يا (حسن) ، مادمت هنا

في (إنجلترا) .

ابتسم في شُحوب ، وهو يغمغم :

***** ٨١ *****

— صدقت يا سيدى .

صعد إلى الطابق الثانى ، حيث حجرات النوم ، وتوقف لحظة أمام حجرة (جينا) فى تردد ، ثم واصل طريقه إلى حجراته ..

لقد ضايقه حقًا ما أخبرته به والدته (جينا) ..

ضايقه مرّتين ..

مرّة لأنه لم يألّف أبدًا ، أن ترشده الأم إلى موطن ضعف ابنتها ..

ومرّة لأنه كشف أن أسلوب المزاوغة لا يقتصر على المصريات ..

كل نساء العالم تستهوين المزاوغات ..

المرأة هى المرأة ..

فى كل العصور والبلدان ..

من أقصى الأرض إلى أقصاها ..

ودفعه هذا إلى أن يتذكّر (مها) ..

تذكّر جمالها الهادئ ، وابتسامتها الرقيقة ..

تذكّر حنانها وحبها ..

صحيح أنها تختلف كثيرًا عن (جينا) ..

الأخيرة أجمل منها كثيرًا ..

***** ٨٢ *****

ولكن (مها) أكثر رقة ..

صحيح أنها لم تعترف له أبدًا بحبها ، ولكنها فى هذا لم تخالف

طبيعة كل المصريات ..

ولا طبيعة الحجل ..

لا ريب أنها قد خجلت أن تعترف له بذلك ..

أو أنها لا تحبه كما ينبغي ..

فجأة ، نسي (جينا) ، وراح يسبح فى ذكرياته مع

(مها) ..

راح يستعيد كل لحاتها وسكناتها ..

استعاد فى ذهنه ابتسامتها وضحكتها ، ورقتها ..

وشعر بحرارة دفينة ؛ لأنه لم يرسلها طوال الأسبوعين

الماضين ..

لم يلفها حتى عنوانه ..

ومعزج من الأسف ، والشعور بتأنيب الضمير ، غادر

فراشه ، وجلس إلى مكتبه الصغير ، والتقط ورقة وقلّمًا ..

كان يشعر برغبة عارمة فى أن يتحدث إلى (مها) ، أو

يكتب إليها ..

وحاز طويلًا ، قبل أن يبدأ الخطاب ..

لم يدّر كيف يخاطبها ..

***** ٨٣ *****

أبلق (عزيزي) يدعوها ، أم (صديقتي) .. أم
(حبيبتى) ؟ ..

إنه لم يرسل إليها أية خطابات من قبل ..
لم يستخدم معها أبدا هذه الوسيلة في الاتصال ..
كانت علاقتهما تقتصر على مقابلاتهما في الكلية ، ومحادثة
أو محادثتين هاتفيتين ، لم يزد حديثهما فيما على دقيقتين على
الأكثر ..

ولى تردّد ، كتب : « حبيبتى (مها) .. »
ثم توقف ..

ماذا لو وقع الخطاب في يد أمتها أو أبيها ؟
لنرى هل يطالعان خطاباتها ؟

لا يمكنه أن يجزم بصحة هذا من عدمه ، في مجتمع
كـ (مصر) ..

لو أنه هنا ، لبات واثقا من أن أحدا لا يجرو على فتح
خطابات (جينا) ، ولا حتى على لمسها ..

المناخ هنا يختلف كثيرا ..

كل شيء يختلف ..

وتنهّد في عمق : وهو يكتب ..

« انقذت لك كثيرا .. أنا هنا في مجتمع مختلف .. لم أجد أحدا
كالمسابق أننى غريب .. كل شيء هنا يتفق مع شخصيتى
ومبولى .. كل شيء منظم دقيق .. كل الأمور تتبع المنطق
والعقل .. هذا هو مجتمعى الحقيقى .. »
توقف عن الكتابة دفعة واحدة ، عندما تنهى إلى مسامعه
صوت طرقات خافتة على باب حجراته ، فقال فى تولّر :

— من ؟ ..

أتاه صوت (جينا) ، وهى تقول فى تولّر فمائل :

— إنه أنا ..

نهت لسماع صوعها وعقد حاجبيه فى شدة ، وهو يقول فى
اضطراب :

— « جينى » ؟ .. ماذا تريدين ؟

قالت فى تولّر :

— افتح أولا ..

ازدرد لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

— الباب مفتوح ..

دفعت الباب ، ودلفت إلى الداخل كملاك فى غلالة

زرقاء ..

وتطلّع إليها متهورا ..

كانت فاتكة ، بشلال الذهب فوق رأسها ، ومضامتها
الرقيلة الزرقاء ، وصوتها الخامس ، وهي تقول :

— إني أعذر ..

ابتسم لي اورتاج وسعادة ، وهو يقول :

— لا عليك ..

لحظتها نسي كل ما سببه له من آلام ..

نسي كل شيء ..

حتى (مها) ..

وعاد هو و (جينا) طائرني في السماء ..

سواء الحب ..



***** ٨٦ *****

٧ — اللقاء ..

« هيه .. أين أنت ؟ .. » ..

قالت لها صديقتها (سلوى) ضاحكة ، فانسحبت (س)

من شرودها ، والتفتت إليها عاتقة في جزع :

— ماذا هناك ؟

تطلعت إليها (سلوى) في إشفاق ، وهي تفهم :

— سألتك أين أنت ؟

اغرورت عيناها بالدموع ، وثوحت بكفها بلا هدف ،

قائلة :

— هناك ..

كانت كلمة مهمة ، إلا أن (سلوى) أدركت مغزاها على

الفور ، ربما لحانة وعمق الصداقة بينها وبين (مها) ، فاقربت

منها ، وربعت على كفها في حنان ، قائلة :

— ألم يرسل أية خطابات حتى الآن ؟

هزت (مها) رأسها نفثا ، وهي تقول في حزن ومرارة :

***** ٨٧ *****

— أبدا .. كما لو أنه قد نسيني تمامًا .. إنني لا أعرف حتى عنوانه هناك .

تنهدت (سلوى) ، وهي تقول :

— هل أرسل لأمه ؟

أجابتها باكية :

— كلا .. لم يفعل ، والمسكينة تكاد تبجن جزعا ولوعة ..

لقد جازفت واتصلت بها ، أسألتها عن خطابات (حسن) ،

فوجدتها تكاد تنهار خوفا وقلقا .

تمتمت (سلوى) في خيرة :

— ماذا أصابه إذن ؟

هتفت (مها) :

— لست أدري .. إنني أكاد أجنُّ يا (سلوى) .

تردّدت (سلوى) لحظات ، وهي تقول :

— ماذا لو أنه ؟

بترت عبارتها بغتة ، على نحو التبت له نفس (مها) .

فسألتها في تولّر :

— لو ماذا ؟

ارتبكمت (سلوى) ، وهي تقول :

***** ٨٨ *****

— إنه مجرد خاطر بالطبع .

سألتها (مها) في جدّة :

— أي خاطر ؟

تردّدت (سلوى) مرّة أخرى ، ثم لم تلبث أن حسمت

أمرها ، واندفعت تقول :

— ماذا لو أنه قد ارتبط بأخرى هناك ؟

القبض قلب (مها) في قوّة ..

كان هذا بالذات هو الذي يقلقها ، ويؤرقها للغاية ..

كان هذا ما تخشاه ..

أن يكون (حسن) قد نسيها هناك ..

أن يكون قد هام بأخرى ..

هذا الخاطر يراودها منذ رحيله ..

يهاجها كالكوبيس في منامها ..

يؤرقها في يقظتها ..

يعذبها ..

يقتلها ..

وطول غيابه يجعل هذا الخاطر أقرب إلى الحقيقة ..

الحقيقة المرّة المخيفة ..

وعلى الرغم من شعورها هذا ، هتفت :

***** ٨٩ *****

— مستحيل !؟ .. مستحيل أن يفعل (حسن) هذا !!

سألها (سلوى) في إصرار :

— لماذا هو مستحيل !؟ .. أليس شائبا عاديا ؟

هفتت (مها) :

— لا ، لا .. (حسن) ليس عاديا .. إنه يختلف .

قالت (سلوى) في حجة تحمل طابعا ساخرًا :

— المقصدين أنه (غريب الدار) ؟

قالت في جدّة :

— بل المقصد أنه يختلف حقًا .. (حسن) شاب رقيق

الحسن ، مُرَّهف المشاهر .

قالت (سلوى) في جناد :

— هذا يساعد على وقوعه في حبال أخرى ، لا العكس .

القبض قلب (مها) مرة أخرى ، وهي تقول :

— عطاء .

ولكن صومها كان يحاربها ..

قالت كلمة (عطاء) ، في صوت مرتجف متخاذل ، جعل

الكلمة أحبه .. (أجل) ..

قالتا وهي ترتعش خوفًا ، مِمَّا شجّع (سلوى) على أن

تستطرد :

***** ٩٠ *****

— صدقيني .. هؤلاء الذين يتمتعون بحسّ مُرَّهف ،

يكونون دائمًا أضعف من غيرهم ، في الأمور العاطفية

بالذات ؛ لأن حسّهم المُرَّهف ، ومشاعرهم الرقيقة ، تحتاج

دومًا إلى وقود يُذَكِّبها ، وهذا الوقود هو العواطف الجياشة ،

والحزن الذي يسقون إليه فيها ، وخاصة في الغربة .

تمتت (مها) في خلع :

— لقد كان (حسن) دائمًا غريبًا مُنطويًا ..

هزت (سلوى) رأسها نفيا ، وقالت :

— الغربة في الوطن تختلف عن الغربة خارجة ، ففي الأولى

تكون الغربة في أعماق الشخص فحسب ، وتختلف من

وطأها — دون أن يدري — مشاعر ألفية المجتمع والناس ، أمّا في

الثانية ، فيجد المرء نفسه مُنغزلًا عن كل ما يمثّل له بهيمة ، حتى

عاداته وتقاليده ؛ لذا فحاجته للعواطف تشتدّ ، ويكون من

السهل أن

قاطعتها (مها) في خلع :

— كفى .

ثم أمسكت صدرها بقبضتها ، وكأنها تحاول إيقاف حَفَّان

قلبا العنيف ، وهي تقول :

***** ٩١ *****

— لا يا (سلوى) .. لا .. لن أصدق هذا عن (حسن)
أبدا .. أبدا .. وبين ضلوعها ، زاح قلبها يتف مع خفقاته :
— غل يا (حسن) .. غل كما أنت .. غل ..

أياماً سعيدة قضاها (حسن) في (دوفر) ..
أيام اختلط فيها الحب بالعمل ..
كان يخلق في سماء الحب طيلة النهار ، ثم يبط إلى ساحة العلم
في المساء ، بين يدي مستر (كين) ..
ابتسامة (جين) كانت تمحو عنه عناء البقاء مع والدها ..
كلمات حبا تتشله من نهر القرية ..
وطوال شهر كامل ، اقتصرت علاقتهما على كلمات
الحب ، وتشابك الأيدي والأصابع ..
كان يعلم طيلة الوقت أن تقاليد ذلك المجتمع ، الذي انتقل
إليه ، تسمح له بما يتجاوز ذلك بكثير ، إلا أن تقاليد المجتمع
الذي جاء منه ، كانت توقيه عند ذلك الحد ..
وكثيراً ما لاح له أن (جين) تشعر نحوه بالشجر والمثل ..
إلا أنه مترعان ما كان يُلقي ذلك جانباً ، ويكفي بالاستمتاع
بصحبتها ..

*** ٩٢ ***

وفي ذلك اليوم ، بعد شهر ونصف من وصوله إلى
(دوفر) ، كان يقف معها إلى جوار تلك النافورة الجميلة ،
التي تتوسط حديقة منزلها ، والتي صُنعت على هيئة تمثال
(كيويد) ، عندما همس في أذنها :

— (جين) .. ما نهاية حُبنا ؟

ابتسمت ، وهي تقول :

— ما للحب من نهاية ..

قال في حنان :

— أغني ما الخطوة التالية له ..

أراحت رأسها على صدره ، وهي تقول :

— الحب وحده خطوة نهاية ..

قال في حب :

— وماذا عن الزواج ؟

رفعت رأسها عن صدره ، وتطلعت إليه في خيرة ، وهي

تقول :

— وما علاقة الحب بالزواج ؟

هتف في دهشة :

— ماذا تقولين يا (جين) ؟

عادت تكرر في إصرار :

*** ٩٣ ***

— نعم .. ما علاقة الحب بالزواج ؟

كانت الدهشة المرتسمة على وجهه عارمة ، حتى أنها
أضافت في لهجة رصينة ، بدت له أشبه بلهجة والدها ، عندما
ينهمك معه في شرح عدد من مفردات وجل الإنجليزية المعقدة :
— اسمع يا (حسن) .. الحب يختلف كثيراً عن الزواج ..
بل لقد قالوا في أمثالنا القديمة إن الزواج هو مقبرة الحب .
هتف في استنكار :

— وماذا عن الشرعية ؟

أجابته بنفس اللهجة الرصينة :

— الحب في حد ذاته شرعية ، بدليل نفس المثل الذي
ضربته لك قديماً ، إنك قد تحب زوجة رجل آخر ، ولكنك
لا تتزوجها ، في حين أنك قد تتزوج أخرى لا تحبها .

سأها في جدّة :

— لماذا أتزوجها إذن ؟

أجابته في هدوء :

— لأن مصلحتك هي أن تفعل .

حذق في وجهها غير مصدق لما يسمعه منها ، وقال :

— (جيني) .. أتفنين أنك ترفضين الزواج مني ؟

قالت في هدوء :

***** ٩٤ *****

— لست أرفضه .

وقبل أن تهلّل أساريره ، أضافت :

— ولست أقبله .

هتف في دهشة واستنكار :

— لماذا بالله عليك ؟

ضحكت ، وهي تقول :

— لأنني ما زلت صغيرة السن .

سأها في خذر :

— أتخفى هذا أنك لا ترفضيني بالذات ؟

هتفت في حماس :

— بالطبع .

ثم مالت نحوه ، هامسة في دلال :

— والآن ، هل تصحبني إلى (لندن) ؟

سأها في دهشة وقلق :

— (لندن) ؟ .. لماذا ؟

قالت مبتسمة ابتسامتها العذبة :

— أريد أن أبتاع بعض الأشياء ، وأستأجر ثوب سهرة

أيضاً .

عقد حاجيه ، وهو يقول :

***** ٩٥ *****

— لماذا ؟

ضحكت ، ومالت على أذنه ، هامة :

— اليوم عيد ميلادى .. سأتم تسعة عشر عامًا .

هتف فى سعادة :

— يا إلهى !! لم لم تخبرينى من قبل ؟

ضحكت فى جذل ، وهى تقول :

— أردت أن أجعلها مفاجأة لك :

أمسك كفيها فى حنان ، وهو يقول :

— كل سنة وأنت طيبة يا (جينى) .

ضحكت فى مرح ، وهى تقول :

— شكرًا لك يا (حسن) .

ثم جذبته من كفه ، مستطردة :

— هيا .. متصحبينى إلى (لندن) .

سأها فى تردد :

— ولكننا سنعود مبكرًا .. أليس كذلك ؟

أطلقت ضحكة مرحة ، وهى تقول :

— بالطبع ..

ثم مالت نحوه ، مستطردة فى الحبث :

— ولكن لا يوجد درس الليلة ، فنقيم حفل عيد

ميلادى .

منعها ابتسامة عريضة ، وانجبه خلفها إلى السيارة ..

وإلى (لندن) ..

وهناك شاركها كل مشترياتها ، فيما عدا ثوب السهرة ،

الذى أصرت على استجاره وحدها ، وعلى ألا تريه إياه ، مما

جعله يضحك ، وهو يسأها :

— لم كل هذه السرية ؟ أهو سلاح حربى ؟

أجابته فى ذهاء :

— ثوب المرأة هو دائمًا سلاح حربى ، يهزم به الرجل .

هز رأسه نفيًا ، وقال :

— خطأ .. سلاح المرأة الحقيقى هو شخصيتها وأخلاقها .

قالت فى مكر :

— أتراهن ؟

قال فى جدية :

— هذه هى الحقيقة ، فلو أن الثياب هى سلاح المرأة ،

لكانت أكثر النساء ثراءً هى أزوعهن ، وأكثرهن جمالًا .

قالت فى ثقة :

— أليس هذا صحيحًا ؟

هتف في استكار :

— كلاً بالطبع .

وضعت أناملها الرقيقة على شفتيه ، وهي تقول :

— حسناً .. لن نتجادل الآن .

ضحك ، وهو يقول :

— هذا أفضل .

ثم أمسك كفها في حب ، مستطرذا :

— فلنؤجل هذا لما بعد .

لم يكدر يرفع عينيه إلى الأمام ، حتى وجد أمامه آخر شخص

يتوقع رؤيته في هذا المكان ..

(منصور) ..

(منصور علام) ..



٨ — صوت العقل ..

• دكتور (حسن) ؟ ..

هتف (علام) في دهشة ، وهو يتطلع إلى وجه (حسن)

قبل أن يستطرد مبتسماً :

— يا لها من مصادفة جميلة !!

ثم انقلبت عيناه إلى وجه (جينا) ، وإلى كفيهما المتعانقتين

فتلاشت ابتسامته ، والتقى حاجباه ، وهو يقول :

— عجباً !!.. كنت أظنك هنا لاستكمال دراستك .

أزدرد (حسن) لعابه في ارتباك ، وهو يقول :

— هذا صحيح .

ثم أشار إلى (جينا) ، مستطرذا بالإنجليزية :

— هذه (جينا كين) .. ابنة أستاذي في اللغة الإنجليزية

ابتسمت (جينا) ابتسامتها العذبة ، في حين قال (علام)

في شك ، وباللهجة العربية :

— فقط ؟

أطرق (حسن) برأسه كطفل خجول ، وهو يتمم :

— وخطيتي .

هتف (غلام) في دهشة :

— خطيتك ؟!

ثم عاد حاجباه يلتقيان ، وهو يقول :

— اسمع يا (حسن) .. إننى أعلم أن الحديث بالعربية ، في

وجود هذه الإنجليزية ، التى لا تفهمها ، يُعَدُّ مخالفاً لللياقة ،

ولكننى سأحدث بها ، لأننى لا أحبها أن تعلم فحوى حديثنا .

ثم (حسن) في استسلام :

— كما نحب يا سيدي .

وضع (غلام) يده على كتفه ، وهو يقول :

— هل تحب هذه الفتاة حقاً ، أم أنك مهوور بفتها ؟

ارتبك (حسن) ، وهو يقول :

— ماذا تقصد يا سيدي ؟

أجابه في حنان :

— أقصد أننى أيضاً استكملت دراسى هنا ، عندما كنت

مهندساً صغيراً ، ولقد بهرتنى فتيات (لندن) آنذاك ،

وأغرتنى ففتن ، حتى لم أنتبه إلا وأنا أتزوج إحداهن .

هتف (حسن) :

— هل فعلت حقاً ؟

أجابه (غلام) في حزن :

— وذقعت حياتى ثمتاً لذلك .

سأله (حسن) في دهشة :

— هل تشعر بالندم ؟

أجابه (غلام) :

— حقاً يا ولدي .

قال (حسن) منفعلًا :

— ولكن فتيات هنا أفضل بكثير من فتيات (مصر) .

إنهن أكثر جمالاً ، وبساطة ، و ..

قاطعته (غلام) في حدة :

— والانحلال .

هز (حسن) رأسه نفياً ، وهو يتهد في عمق ، قائلاً :

— من الظلم أن نسمى هذا الانحلالاً يا سيدي . إنها تقاليد

المجتمع ، والتقاليد شيء نسي بحت ، فالقادم من قرى الصعيد

مثلاً ، سيري أن مير الفتيات حاسرات الرأس في (القاهرة) ،

هو نوع من الانحلال ، في حين

قاطعته (غلام) :

— اسمع يا ولدى .. الانحلال أمر لا يتعلق بالعادات والتقاليد ، والأفما كانت هناك مقاييس في العالم أجمع .. الأخلاق والانحلال أمور تتبع منهاجاً واحداً .. منهاج الشرائع والأديان السماوية ، ولو أنك راجعت ذلك المنهج ، في آية شريعة ، أيما كانت ، لوجدت أن الفتيات هنا منحللات .

عقد (حسن) حاجيه ، وهو يقول في جملته :

— الانحلال موجود في كل مكان ، حتى في أعماق الصحراء .. الفارق هو أن يكون علنياً ، أو سرياً .
قال (علام) في إشفاق :

— علانية الخطأ ليست تقيناً له ، ولا تبيحاً لمركبه يا ولدى .. إنها على العكس / تجعل منه مناجاة للحياة ، وهناك فارق كبير في أن يكون الخطأ أمراً مخبئاً لا بهل أن تستر لفعله ، أو أن يكون مناجاة ، يتعذر عليك أن تمنع أبناءك من الوقوع فيه .

واغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يقول :

— مثلما حدث لابنتي .

حذق (حسن) في وجهه ، وهو يغمغم :

— ابنتك ؟

أوما الرجل برأسه في مرارة ، وهو يقول :

— نعم .. ابنتي صدقت يا ولدى .. التقاليد الشرقية ، الكامنة في أعماقك ، لن تتألف أبداً مع روح هذه المجتمعات .. إن قشورها الزائفة ستبهرك في البداية ، إلا أنك لن تلبث أن تكشف مساوئها ، عندما تعرض فيها .

غمغم (حسن) متوتراً :

— سيدي .. قد يختلف الأمر معك .

تطلع إليه (علام) في أسف ، وهو يقول :

— أنت عبيد بالفعل ، كما توقعت .

ثم مال نحوه ، مستطرداً في الفعل :

— اسمع يا (حسن) .. على أية حال ، حاول أن تفكر في كلماتي هذه ، ودعني أكرر لك أنني على أتم استعداد لمعاونتك ، وقتما تشاء .. ولو أنك تراجع ، وقررت استكمال دراستك في مصر ، فإني أعلم ، فأنا أبني الآن مستشفى خاصاً هناك ، لحساب شقيقى الدكتور (فائق علام) ، أستاذ الجراحة المعروف ، وسأضمن لك عملاً هناك ، بأجر مُعجز ، وبفرصة للدراسة والاستذكار .

تمم (حسن) :

— سأفكر في الأمر يا سيدي .

تصالحا في حرارة ، و (علام) يقول :

— اتخذ قرارك في أسرع وقت يا ولدي .. قبل أن تفقد

فرصة التراجع .

تم (حسن) :

— سأفعل .

التفت (علام) إلى (جينا) ، التي بدت مُخَنَّفَةً غامضة ،

لحديثهما بالعربية طيلة الوقت ، وصالحها قائلا بالإنجليزية :

— معذرة يا أنسى .. الحديث مع مسر (حسن) شيق

بلغاية ، ولكنني سأتركه لك الآن .

وأسرع ينصرف بحسده البدين ، فالتفت (جينا) إلى

(حسن) ، تسأله في جدّة :

— لماذا لم تقدمه إلي ، كما قدمتي له ؟

أجابها في شرود :

— إنه مجرد صديق .

قالت في جدّة :

— ولكنك بذلك أهنتي .

تم في انقباض :

— معذرة .. لم أقصد .

اكتفت منه بهذا القول ، وهي تقول في ضيق :

— حسينا .. هيا .. سنعود ..

وفي هذه المرة ، جلس هو صامتا طيلة الطريق ..

كان يفكر في كلمات (علام) ..

وفي هذه المرة ، كان يحارب منطقته وعقله ..

جزء كبير من عقله كان يؤمن بكل حرفه نطق به

الرجل ..

وجزاء آخر يرفضه ..

جزء مشبع بدماء العاطفة ..

ولم تقطع (جينا) حبل صمته أبدا ..

وعندما وصلا إلى المنزل في (دو قر) ، كانت استعدادا

الحفل واضحة في الحديقة ، فلقد امتدت أوراق الزينة غيرة

وازدانت الأشجار بمصاييح ملونة ..

وجلس (حسن) في الحديقة شاردا ، متساللا ..

هل يحب (جينا) حقاً ؟ ..

أيهما يحب ؟ .. هي أم (مها) ؟ ..

وفي تلك اللحظة ، احتلت (مها) وحدها عقله

طردت صورتها وجه (جينا) من خياله ، واستقرت به

ثم ذهبت هي أيضا ..

لبعض الوقت ، ظل ذهنه خاليا من الصورتين ، وكأنها

تُعجز عن اتخاذ القرار ..

ثم سمع صوت أصدقاء (جينا) ، وهم يصلون إلى
الحديقة ..

وعلم أن الحفل قد بدأ ..
ومنذ اللحظة الأولى ، علم (حسن) أنه لا مكان له في
هذا الحفل ..

كان حفلاً أكثر شبابية مما يتصور ..
كان الشبان والفتيات يتراقصون على نغمات راقصة
صاخبة ، لم تستهويه يوماً ..

وانطوى هذه المرأة وحيداً ، في ركن الحديقة ..
وعاد إليه ذلك الشعور القديم ..
شعور الطائر الغريب ..
وفي هذه المرأة عاد قوتها ، جارقاً ..
كان طائراً غريباً ، في مجتمع أغرب ..
وفجأة ، توقفت الرقصات ، وصمتت الموسيقى ،
وارتفعت شهقة من خلوق المدعوين ، وهم يتطلعون إليه ..
لا .. لم يكونوا يتطلعون إليه ..

بل إليها ..
إلى (جينا) ، التي ظهرت خلفه ..
وأدار عينيه إليها ، ثم شهق بدويرة ..

***** ١٠٦ *****

شهق في دهشة واستنكار ..
لقد كانت ترتدي ثوباً فاضحاً حقاً ..
بالنسبة لعاداته وتقاليده ..
ثوباً برّاقاً قصيراً ، عاري الصدر والظهر ، يظهر أكثر مما
يُخفى ..

وأحسّه كثيراً أن يراها كذلك ..
أحسّه أن الجميع يتطلعون إليها في انبهار ..
وأحسّه أكثر أن والديها كانا يتطلعان إليها في إعجاب
وسعادة ..

وسمعها تقول في فرح :
— هل أعجبك ثوبي ؟
ثم ينطق بحرف واحد ..
لم يستطع أن يفعل .
اكفى بالتحديق فيها مذهولاً مستكبراً ..
أما الآخرون ، فقد هتفوا في آن واحد :
— إنه رائع .

ثم تراحم الشبان حولها ، وكل منهم يطالبها أن تشاركه
الرقصة التالية ، وهي تضحك في فرح وسعادة ، قبل أن
تلفت إليه ، قائلة :

***** ١٠٧ *****

— ألن تراقصنى يا (حسن) ؟

قال فى جدّة :

— لست أجيد الرقص .

فالت فى بساطة :

— لا بأس .. يمكنك أن تكفى بالمشاهدة .

اشتعلت نيران الغيظ فى أعماقه ، وهو يراها تندفع وسط مدعوئها ، وتهمك معهم فى رقصاتهم الجنونية ، بثوبها البالغ القصر ..

ولهاجة .. استعداد ذهنه ذكرى بعيدة ..

تذكر يوماً ، كان يراقب فيه مع (مها) مباريات ودّية لتس الطاولة ، عندما نهضت (مها) ، وقالت فى حماس ، وهى تلتقط أحد مضارب اللعبة :

— ما رأيك لو شاركتنى فى مباراة زوجيّة ؟

يومها أجابها فى ضيق :

— لست أجيد اللعبة .

فالت فى حماس :

— يمكنك أن تتعلّمها فى سهولة .

أجابها فى ضيق :

— لست أميل إلى الألعاب الرياضية .. لم أمل إليها يوماً
طيلة عمري .

وقفت تتطلّع إليه لحظة ، ثم عادت تجلس إلى جواره ، قائلة :

— لا بأس .

قال لحظتها :

— يمكنك أن تجدى زميلاً آخر ، و

قاطعته فى حسم :

— كلا .

ثم التفتت إليه مبسمة ، وهى تقول :

— مادمنّا لن نلعبها معاً ، فلنكتف بمراقبتها معاً .

وصمتت لحظة ، ثم أردفت فى حنان :

— المهم أن نكون معاً .

وبلا وعى ، راح يقارن بين الموقفين ، ثم انتبه فجأة من شروده ، وتطلّع إلى الراقصين ، ولكنه لم ير (جينا) بينهم ، فأدار عينيه يبحث عنها ، ولكن نظراته ارتدت إليه كالصاعقة ..
لقد كانت تقف هناك ، عند باب الحديقة ، تؤدّع صديقها ..
وكان هذا الصديق يؤدّعها بأسلوب يرفضه هو تماماً ..
كان يقبلها ..

٩ — العَوْدَةُ ..

انطلق مع (جينا) إلى (لندن) ، في الصباح التالي ، لإعادة ثوب السهرة الذي استأجرته ، وظل هو صامتا ، متفقود الحاجيين طيلة الطريق تقريبا ، حتى قالت هي ضاحكة :

— ماذا أصابك ؟.. هل حلت أرواح تماثيل الفراعنة في جسدك ؟

قال في جدّة :

— لا تسخرى من أجدادى .

ضحكت قائلة :

— لا بأس .. أنت شديد العصيّة هذا الصباح إنك

حتى لم تتطلع إلى وجهى كالمعتاد .

قال في غضب :

— لأنك لا تستحقين ذلك .

— رفعت حاجبيها في دهشة ، ثم عادت تخفضهما ، وهي

تسأله :

— لماذا ؟.. ألم يعجبك ثوبى أمس ؟

***** ١١٠ *****

هتف في حق :

— إنه ثوب فاضح .

عقدت حاجبيها ، وهي تقول :

— فاضح ؟!.. ما الذى ثغيبه بذلك ؟.. إنه ثوب سهرة

فحسب .

قال في جدّة :

— كان قصيرا للغاية ، عارى الصدر والظهر ، و

قاطعت ضاحكة :

— وماذا فى ذلك ؟.. ألم أقل لك إن الثوب هو أحد

أسلحة المرأة ؟

قال ساخطا :

— إننى أرفض أن ترتدى ثوبا كهذا .

هتفت في دهشة واستكار :

— ترفض ؟!.. بأى حق ؟

قال في غضب :

— بحق جينا .

أجابته في جدّة :

— الحب لا يمنحك حق الحجر على حُرّيتى .

قال محاولا هزيمتها :

***** ١١١ *****

— سأطلب يدك من والدك .

قالت في جثة أشد :

— وما شأن والدي بالأمر .. لقد طلبت يدي منى شخصياً ، وقلت لك إننى لست مستعدة للزواج الآن .. ثم إن الزواج لن يمنحك حقاً لا يمكنك الحصول عليه الآن .

هتف مذهولاً :

— ماذا تقولين ؟ ما معنى الزواج إذن ؟

أجابته مُخَنَّدَةٌ :

— أن نقيم في منزل نملكه معاً ، وأن أولئك وترثنى ، وأن يحمل أطفالنا اسمك .

ثم معطت شفتيها ، مستطردة في ازدراء :

— هذا ما يقوله أبى وأمى ، أما أنا ، فأراه قولاً أحق ، فيمكننا أن نقيم في منزل يمتلك كل منا نصفه ، وأن يوصى كلانا بثروته للآخر ، وأن يحمل أطفالنا اسمك ، دون حتى أن نتزوج .

هتف في ذهول :

— (جينى) .. أى قول هذا ؟

صاحت في صرامة :

— الواقع .

هتف :

— إنه ليس الواقع ، بل المنهج التبريرى الممجى ، منهج الحيوانات والحشرات .. ألا تعلمين أن الزواج هو أسمى رابطة تضم أثنين من جنسين مختلفين ؟

قالت في جثة :

— إنه أيضاً أسوأ رباط وقيد للحرية .

هتف حائراً :

— لا توجد حرية غير محدودة يا (جينى) .. حتى الحريات الشخصية حددتها الشرائع والقوانين .

قالت في ازدراء :

— والقوانين وضعت لتجاوزها .

هتف :

— بل لتنظم حياتنا .. لنطيعها ونشعر بالأمان لوجودها ، وإلا انقلب الأمر إلى فوضى ، وتحول العالم إلى غابة .

صاحت به مُخَنَّدَةٌ :

— أوليس كذلك بالفعل ؟

أجابها في مرارة :

— ربّما .. ولكننا لو تخوّننا القوانين ، فسيصبح أسوأ .

أطلقت ضحكة ساخرة ، وهى تقول :

— هذا قول الجبناء .

هتف في مرارة :

— بل العقلاء يا (جنى) .

صاحت به في قسوة :

— لا تخاطبني باسم (جنى) .

قال في دهشة :

— بم أخاطبك إذن ؟

قالت في جحظة :

— باسم من (كين) .

هتف مستكبرا :

— (جنى) ماذا تفنين ؟

قالت في غضب :

— أغني أنسى لم أغد صديقتك .

عقد حاجبيه في جحظة ، وهو يهتف :

— بهذه البساطة ؟

قالت في صرامة :

— هذا أفضل من تعقيدات لامبرر لها .

قال في غضب :

— آية تعقيدات ؟ .. لقد ودّعتك الجميع أمس بالقبلات ،

شبانًا وشابات .

قالت في حزم :

— وماذا في ذلك ؟ .. إنهم أصدقائي .. أريد لك هذا أيضًا

فاضحًا ؟

صاح في خنق :

— بالطبع .. كيف تسمحين لشاب غريب بتقبيلك ؟

قالت في جحظة :

— ليس غريبًا .. قلت لك إنه صديقي ، ثم إنني لست

أسمح لك بمناقشة مثل هذا الأمر .

قال صائحًا :

— حسنًا .. لن أفعل .

لاذ بالصمت في خنق ، واحتقن وجهه غضبًا ، وأخذت

هي تقود السيارة في عصبية ، حتى بلغها ذلك المتجر في

(لندن) ، حيث استأجرت ثوب السهرة ، فقالت في جحظة :

— سأقضي بعض الوقت في الداخل .. يمكنك أن تجول ،

أو تشتري شيئًا .

تم محققًا :

— ليس معي سوى جنيه .

قالت في صرامة :

— انتظر هنا إذن .

ثم اتجهت إلى المتجر في خطوات صارمة ، واختفت داخله .
وجلس هو يغلى غضباً ..

كان موقفها يُخيقه في شدة ..

لم يدرك كيف جرّوت على تبرير مواقفها هكذا !!!
أم أنها من مجتمع آخر حقاً ؟ ..
مجتمع لم ولن يآلفه ..

مجتمع صار فيه طائراً أكثر غربة عن ذي قبل ..
وفجأة .. شعر أن مقعد السيارة يكبله ..
بحرقه ..

وغادرها في عصية شديدة ..

فجأة ، لم يعد يحتمل البقاء داخلها ..

فجأة ، كره كل ما ينتمي إليها ..

وغبى الشارع في خطوات واسعة سريعة ، وانتقل إلى
الجانب الآخر ، وكأنه يفر من كل ما يذكره به (جينا) ..

واستدار يتطلع إلى السيارة من بعيد ..

ورأى (جينا) تغادر المتجر ، وتتجه إلى السيارة في حدة ،

ثم تمنى لتطلع داخلها ، ويحقق وجهها غضباً ..

***** ١١٦ *****

لم يدرك ظل صامتاً ، وهو يتطلع إليها ؟ ..

ربما أراد أن يراها في لحظة غضب ..

ربما أراد أن يختبر عواطفها نحوه ..

أراد أن يراها قلقة بشأنه ..

باحقة عنه ..

كان يتمنى لو أنها أقدمت على خطوة واحدة ، تؤكد له أنها
ما زالت تربطه ..

ولكن (جينا) صدمته ..

لقد تلفت حولها في خفق ، ثم قفزت داخل السيارة ،
وأدارت محركها في عصية ..

وهنا فقط انتبه ..

انتبه إلى أنه لا يستطيع العودة دوماً ..

وهنا فقط هتف :

— (جينا) .. انتظري ..

ولكنها انطلقت بالسيارة ..

انطلقت دون أن تنظره ..

وبلا وعي ، وجد نفسه يغدو حلف السيارة ، وهو

يصرخ :

— انتظري يا (جينا) .. أرجوك ..

***** ١١٧ *****

كان والثقا من أنها تراه ..
 كان يرى عينها تتطلعان إليه ، في مرآة السيارة ..
 ولكنها لم تتوقف ..
 واصلت سيرها في بقاء نسي ، وكأنها تتعمد إذلاله ،
 وتعمد رؤيته يغدو خلفها ..
 وأخيرا عجز عن اللحاق بها ، وتوقف يلهث في شدة ..
 كيف فعل هذا ؟ ..
 كيف سمح لنفسه بأن يغدو خلفها ، ويتوكل لها على هذا
 النحو ؟ ..
 يا للعار !! ..
 كيف نسي أن هذه هي (جينا) ؟ ..
 كيف نسي ما أخبرته عنها أنها ؟ ..
 هكذا (جينا) دائما .. تلفظ من يغدو خلفها ..
 هكذا هي ، كبنات جنسها ووطنها ..
 مراوغة ، أنانية ، متكبرة ..
 ما كان ينبغي أن يغدو خلفها أبدا ..
 كان عليه أن يتجاهلها وينتظر ..
 كانت ستعود إليه حتما ..
 تماما مثلما فعلت من قبل ..

ولكنه غدا خلفها ..
 ولفظته ..
 يا إلهي !! .. إنه الآن وحده ..
 وحيدا في موطن غريب ..
 لم يشعر في حياته كلها بالغربة ، مثلما شعر في تلك
 اللحظة ..
 لقد كان وحيدا ، لا يمتلك سوى جنيه أسترليني واحد ..
 حتى العملة التي يملكها غريبة ..
 كان وحده ، بلا صديق ..
 بلا رفيق ..
 كم يشعر بغربة خانقة ، تحتصر عنقه ..
 كم يشعر بها تجثم على أنفاسه ..
 لم يغد يلهث من التعب وحده ..
 كان يلهث من القهر أيضا ..
 وفي تلك اللحظة بالذات ، التهب في أعماقه شوقه إلى
 موطنه ..
 إلى أمه وأبيه ..
 إلى شقيقه (أحمد) و (وهبي) ..
 إلى (حنان) ..

كم يشتعل الشوق في أعماقه نحو (مها) ..
يا إلهي !!

لقد نسيتهم جميعاً ..

لقد خدعته بريق الغربة ، وانتزعه من طهارتهم ..

خدعته ليلقى به وحيداً غريباً ..

إنه لا يملك حتى ما يكفي لشراء تذكرة قطار ، يعود بها إلى

(دوفر) ..

ولا إلى وطنه ..

لا يملك سوى جواز سفره ، الذي لا يفارقه أبداً ..

ومد يده إلى جيب سترته ، يخرج جواز سفره ..

وسقطت من جواز السفر بطاقة ..

والحنى (حسن) يلتقطها ..

وتفجر الأمل في قلبه وأعماقه ..

إنها بطاقة (منصور علام) ..

ذلك المصري ، ذو القلب الطيب الحنون ..

كيف لم ينتبه إلى ذلك الفارق الرهيب ، بين مواطنيه ،

ومواطن الغربة ؟ ..

كيف غابت عنه الشهامة العربية الأصيلة ؟ ..

نعم ..

***** ١٢٠ *****

كل شيء في (مصر) بدا له الآن رائعاً ..

كل شيء ..

لقد وجد طريقه ..

سيذهب إلى عنوان (منصور علام) ، المدون في بطاقته ..

سيذهب إليه ، ولو كان في آخر (لندن) ، ولو سار إليه

على قدميه ..

وسيجد له الرجل وسيلة العودة ، وتلك الوظيفة في

مستشفى شقيقه الخاص ..

سيمنحه الأمل في موطنه ..

قرأ العنوان في إمعان ، واستعد للسير إليه ..

وفجأة توقف ..

لقد اتخذ قراراً ، سينفق فيه آخر جنيهه أسترليني في

جيبه ..

وفي حزم ، اتجه نحو هاتف دولي ، وأمسك الجنيه في

اهتمام ، ثم اتجه به إلى كشك صغير ، وأبدله بعملات معدنية ..

كان يتغنى الاتصال بـ (مصر) ..

وكان يعلم أن المبلغ الذي يملكه ، لن يتيح له سوى نصف

الدقيقة فحسب ..

وغامر بكل ما يملك ، مقابل نصف الدقيقة هذه ..

***** ١٢١ *****

وضع كل المبلغ في آلة الهاتف ، وطلب الرقم ..
ومضت لحظات ، ثم سمع صوتها ..
صوت (مها) ..

ومن العجيب أنه لم يستغل نصف الدقيقة كله ..
لقد قال لـ (مها) عبارة واحدة ، أنهى بعدها الاتصال :
— سأعود كما كنت ..

وعاد ..

عاد إليها ..

[تمت بحمد الله]

المؤلف



د. نيل فاروق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الآب
أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل

طائر غريب

عاش (حسن) عمره كله طائراً
غريباً حتى بعد أن التقى بـ (مها) ..
ثم سافر ليستكمل دراسته في (لندن) ،
وهناك ذاب في جمال (جينا) ، الإنجليزية
الحسنة .. ولكن .. هل انتهت بذلك
غريبته ، أم أنه سيبقى يوماً كما
كان .. (طائراً غريباً) ؟

٦٦

التمن في مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم